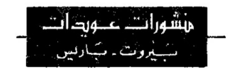
جَانْ پواريِيْه

تاريخ العِرقيّة

ترجَمة
نسْيم نَصْر



تاريخ العِرقية

جان پواريـه
مدير قسم العلوم الانسانية
في كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة مدغشقر

تاريخ العرقية

ترجمة
نسيم نصر

منشورات عويدات
بيروت . باريس

الطبعة الثانية ١٩٨٣

مدخل

هذا الكتاب يندمج في مجموعة من كتب ، تتخصص بالعلوم العرقية . وسينصبُّ الجهد فيه على إعادة رسم المراحل الأساسية التي مرت بها الفكرة العرقية ، وهي سببية ثانية تناولها ب. ميرسييه ، موجباً على نفسه دراسة ما يصلها « بالعرقية المعاصرة » . وفي فترة لاحقة ، سينشر مجلدان من المجموعة ذاتها المخصصة بالوسائل التقنية ، في ملف « المعلومات العرقية » لجان بواريه ، وفي القضايا المدرجة في كتاب « مفارقات العقائد والمؤسسات في البنيات المجتمعية » تأليف ب. ميرسييه .

قصدُنا في ما نقدم ، أن نلفت الانتباه الى ثلاث نقاط :

الأولى : ان الحد القائم بين التحليل التاريخي والتحليل المتناول الوضع المعاصر ، لا يمكن ان يكون إلا فردياً ارادياً : فالناشر والمؤلفون اتفقوا على تعيين سنة ١٩٣٠ ، دون ان يعلقوا اهمية ثابتة على هذا التاريخ . ومع ذلك ، فاعتبار هذا

التاريخ فاصلاً يمكن تعيين طبيعته ، يحسب امراً وارداً معقولاً :
فالعرقية بدأت منذ سنة ١٩٣٠ ، تغير طريقتها ، وصبغتها ،
وحظها ؛ فاتخذت سماتها الفارقة وأصبحت مهنية ، وعلمية ،
وتطبيقية ؛ وأوجدت لنفسها تقنيات ارتكزت عليها تدريجياً ،
وهكذا وجدت طريقها الى الجامعة . ولكنها جرّت خلفها كل
تاريخ معرفة تغير الانسان في المكان والزمان ، وتطور المفهوم
بالفارق بين شيء وآخر ، والانتقال من الاهتمام بالغرائب الى
الاشتغال بالانسانية . وقد جاء بعض الاشتغالات بدرس النظام
العرقي سابقاً « أبا درس الخصائص العرقية » هيرودوتوس .

والثانية : محاولة وضع النقاط على الحروف في مضمون
العرقية التقليدي . هذا المضمون الذي بقي الى زمن قريب ،
متناولاً ، بشكل خاص ، حضارات ما قبل المسكوكات ،
و « الحضارات الموغلة في القدم » ، التي سبقت الصناعة. فمضمون
العرقية كان غرضاً لتنظيمات خاصة ، وللعلوم الاستشراقية :
كالاسلامية ، والهندية . والصينية [1] .

والعرقية ، بمعنى تسميتها الواسع ، تجعل هذه الأبحاث
الاختصاصية غير قابلة الافساد ، وتقتضي ان نخصها بمعالجة
تحليلية كاملة تعيّن الخطوط الرئيسية لتكوينها التاريخي. ولكن

١ - كذلك ، نحن لا نقدر ان نعالج هنا مجتمعات « تقليدية القدم »
تعيش في هذا النطاق من الاجواء الثقافية .

هناك مؤلفات أخرى ، من هذه المجموعة ،تتناول هذه المسائل، وهوذا نحن ، هنا ، نعيد رسم تاريخ العرقية ، بصورة عامة .

والثالثة : نظام الفكر ذاته، وسنذكّر بأن تحديد العرقية، تطوّر من أساسه . ويبدو أنها تُعتبر اليوم،علماً يُعنى بالمشاركات المرتكزة على مبررات تقليدية ، يُعرف بعلم المنافع المشتركة.وهو علم حُسن العلاقات بالسوسيولوجيا ، اختّه المنظمة ، المعروفة بعلم التعاونيات . وهو علم يقوم على تكتلات متمركزة على مبررات عقلية . والعرض الممثّل يأخذ بعين الاعتبار القبول التقليدي العرقي ، في مختلف تغيراته ، او خصائصه ، الموجهة نحو المجتمعات في ما قبل الصناعة غير الاوروبية. والفولكلور، اليوم ، تحت شكله الموسّع ، يؤلف جزءاً لا يستبعد عن البحث العرقي ، ولكن ما يذكّر به تطوره التاريخي ، يتجاوز نطاق حجمه الحاضر .

١ الروّاد

ان كلمة عرقية ولدت سنة ١٧٨٧ ؛ امـــا الـكلمة المركّبة « درس الخصائص العرقية » ، فقد جاءت لاحقاً: ١٨١٠ .وكان لهذين الحدين من التعبير استعمالات في الكلام تختلف اختلافــاً بيّناً عما يعنيانه في المفهوم الحديث . ولكن ميلاد فكرة العرقية سابق ، سبقاً طويل الزمن ، ميلاد التعريف النوعي الخاص بها . فمن واجب تاريخ المعرفة الانسانية ، من وجهة النظر التي تهمنا، أن يعيد رسم تقدم التنبه الوجداني ، الذي حملته الينا المجتمعات الخارجية . لأن درس هذا التقدم لا يستنفد البحث العرقي ، بل يكون ، بصورة قياسية ، غير كاف ، لعظم الاهمية الـــتي نعلقها ، اليوم ، على التفسيرات التي تقدمها لنا العرقية . ولهذا، من الضروري ان نسجل مراحل تطور اوسع: انه تاريخ الفكرة العرقية الذي هو مبدأ تغير الانسان في المـكان والزمان. وهذه

هي المقاربات الضرورية لهـــذا المبدأ ، الذي يتنوع ويزدهر ، اليوم ، في تعريف أقرب الى الفهم ، وهذا ما سنحاول أن نضع له تخطيطاً أولياً .

١ - العصور القديمة

ان رؤيا من سمّوه « ابا درس الخصائص العرقية » تتناول امتداداً نظرياً واسعاً : فهيرودوتس ، بلا ريب ، ولوع بخوارق العادة ، ولكنه لا يجمع منها غير الغريب . وليس من فضلات الكلام أن نذكـّر أن عمـــل هيرودوتوس التأليفي ، جاء درساً للعرقية بقدر ما جاء تسجيلاً للتاريخ : فقد كان يتعمد أن يكون عمله على هذا الأساس ، ونرتكب معاكسة معنوية تثير الفضول إن نحن ترجمنا العنوان الذي اراده بكلمة « تاريـخ » ؛ لأنه عندما استعمل جمع الكلمة كان يعني بالضبط : مجموعات من الشواهد والدلائل التي يجمعها باحث مما رآه وعرفه حقيقة في مجرى بحثه . ومن هذا القصد يتضح ان المراد ، أقرب الى جمع الاثباتات للدراسة العرقية ، منه الى اعادة بناء التاريخ . فلم يكن ما قام به هيرودوتوس سوى استعراض لعالم القرن

١ – مثلا : أ. دي سيلنكور ، عالم هيرودوتوس ، غاليار (١٩٦٦) ترجمة م. كريستيان .

الخامس ، الذي استطاع ان يدانيه في مجرى أسفاره [1] . ونحن نعلم أنه سافر كثيراً ؛ ولكنه كان شيئاً آخر غير الرجل « الفضولي » ، أنه اهتم اهتماماً جدياً بأن ينفذ الى ما وراء المظاهر ؛ كان باحثاً متحرياً ، جاء سابقاً عهد الحوار والمناقشة العرقية .

وما تزال مئات النقاط العرقية ، تحت التناول للدرس ، مبعثرة على صفحات ألوف الوثائق التي لم يكشف عن مضامينها كشفاً كاملاً ، من حيث وجهة النظر هذه . واذا كان تحليل المجتمعات القديمة تحليلاً مباشراً غير ممكن ، فاننا ، على الأقل ، نملك اوصافاً لها وردت في مؤلفات تاريخية ، وفلسفية ، وجغرافية ، او في كتب علوم طبيعية ، او قصص واساطير ، عدا ما نُغفل قوله عن الميثولوجيا . وهكذا نرى ان هذه الوثائق التي وصلت الينا ، هي دائماً مشوهة ، ولكن أكثرها ذو فائدة كبيرة . وكم من مرة وجدنا ان المؤلف اكتفى بنقل الحادثة دون أن يفهم معناها ، ولا الفائدة منها . ومن وجهة النظر هذه ، يمكن أن تكون أصغر النقاط ، أكثرها اشتمالاً على المعاني . وعلى هذا الاساس وردت اولى التنويهات التاريخية بـ « اوقات الحرية الدينية » التي تلي موت الرئيس ، وهي خاصة ملازمة موضوع ثقافة عامة ، أي موضوع انقلاب البنيات . وهذه التنويهة نجدها في مقطع صغير مما خلّفه سكتوس

امبيريكوس [1] الذي ضمّن قصصه عادة من عوائد الفُرس ، وهذه أيضاً رواها هيرودوتوس ، وقد زعم فيها أن الشرائع والقوانين يجمّد العمل بموجبها ، مدة الايام الخمسة التي تلي موت الملك ، وكأن الوقت كان يقف أيضاً ، فهذه الأيام يعطل خلالها النظام والسلطة .

واذا كانت العصور القديمة الكلاسيكية لم تدرك معنى علم العرقية ، فان المؤلفين ، على الرغم من ذلك ، جمعوا كثيراً من الوثائق لكي يصبح ممكناً أن نكوّن ما يصح أن نسميه حقاً « عرقية المجتمعات القديمة » . وإن المقارنة بين المعطيات الكثيرة أو تجديد تفسيرها يجدد ، في نقاط كثيرة ، معرفة المدنيات التي لم يتناولها ، حتى اليوم ، التحليل العرقي .

٢ ـ القرون الوسطى والنهضة

إن فكرة القرون الوسيطة ، التي تتميز بازدرائها الاختبار ، والفاشيستية في تولي شؤون السلطة ، والاوضاع الدينية التي لا ترحم معارضاً ، لا تنفتح قطعاً على الانسانية المتحدة النزعات والعقائد . إنها ، على العكس ، استقبلت مختارة القصص الوثني

---

١ ــ فيلسوف ومنجم وطبيب يوناني عاش في القرن الثالث . وهو احد ممثلي فلسفة الشك والتشاؤم . (المترجم)

والأساطير . وبما أنها كانت مثقلة بنوع من المبادىء الاساسية غير الخاضعة للتحقيق ، وبآخـــر من الافكار المسبقة ، لم تنتفع بالامكانات الحقيقية التي يفتحها له التماس المتعاقد والعوالم غـير الاوروبية . ومع ذلك فقد بقيت ميزانية الأمور فيها فقـيرة جداً في مجموعها .

إن موضوع العلوم الطبيعية ، المحدث عن المسوخ والاشكال الغريبة ، والذي يثبّت وجوده ، قليلاً ، في كل مكان ، يضع على المسرح نوعاً من الحيوان البشري : كناس ، كلاب ، وناس ذوي أذناب ، وحيوانات بلا رؤوس ، وأقزام ، الخ . وان اضافـة الانسال السوداء ، المشار اليها دائماً ، ليست غير ظاهرة اخرى لهذا الاهتمام الآخذ بضبط الانسانية في حدود دقيقة . ونحن لا نجهل أن مسألة وجود الروح ، عند الاميركيين،وهنود أميركا ، بقيت زمناً طويلاً موضوع مناقشة لا تهدأ . وفي الحقيقة ان هذا الموضوع الطبيعي الغريب يصور جيـــداً فكرة القرون الوسطى ، هذه الفكرة القائمة : في جعل العالم البشري يتحرك ضمن حدود المسيحية والشعوب التي تعرفها، كاليهود ، وخاصة المسلمين ، وفي الالحاق بعالم الحيوان كل الأنسال الخارجية .

والشاهد البارز ، خارج هذا النطاق، جاء به ماركو بولو، في القرن الثالث عشر ؛ ولكنه لم يبدل شيئاً في هــذا الهيكل المرسوم في الأذهان . وفوق ذلك ، فان الوثائق المجموعة كانت

تعتبر كخرافات فيها من الدهاء بقدر مـــا فيها من الجرأة .
وكتاب ماركوبولو ، المعروف بـ « كتاب العجائب » أملاه بعد عودته من إقامة حوالي خمس وعشرين سنة في الشرق الأقصى ، مقرباً عند ملوك المغول . وعندما نشر كتابه سنة ١٤٧٧ ، بدا هذا المؤلّف كأنه موجز في درس العرقية أفضل بكثير مما كان من نوعها لسابقَيه : بلان كاربان[١] وروبروك[٢] .

إن معرفة الرجل الدخيل بالمجتمعات الشرقية يطرح قضايا تبدأ أهميتها بالظهور . فتاريخ هذه العرقية خارج اوروبا لا بد أن يظهر قريباً ، ولكن المؤلفات المخصصة بمعرفة الإنسان كلها أهملت ، حتى اليوم ، النواحي الاساسية من معرفة أوصاف هذه المعرفة على حقيقتها . ولا يسعنا الا أن ننوه بفصول هـــذا التاريخ المغفل : كالوثائق البيزنطية لبروكوب ، وقسطنطين ، وبورفيروجينيت ؛ او بمجموعات الحوادث التاريخية ، والمذكرات التي ألفها بعض الموسوعين العرب ، والفرس ، والهنود ، كرحلات المسافرين العرب : كالادريسي ، وابن بطوطة ، والبيروني ، فهي

---

١ ـ ايطالي فرنسيسكاني (١١٨٢ ـ ١٢٥٢) معتمد البابا اينوسان لدى الخان المغولي ، ومؤلف كتاب في وصف آسيا الوسطى . (المترجم)

٢ ـ راهب فلمنكي (١٢٢٠ ـ ١٢٩٣) ارسله لويس التاسع الى بلاط الخان المغولي (١٢٥٣) . وقد ترك في وصف هـــذه الرحلة وصفاً هاماً . (المترجم)

ينبوع لا بديل له ؛ وكأعمال بعض الصينين ، التي بدأت تنال شهرتها ، خارج علاقات الرهبان البوذيين مثل : ميوان-تسانغ و إي-تسنغ ؛ فهذه كلها تؤلف خزانة أدب لم يكشف عن قيمته ، حتى اليوم .

إن ابن خلدون رائد العرقيين يصدر، في مـــا يكتب، عن قدرة شخصية ، أثبت وجودها في « مقدمته » وفي « تاريـــخ البربر » . إنه لا يكتفي بأن يعطي وصفاً دقيقاً لتقنيات وأنواع من الحياة،ولكنه كان أول من أوضح الخطوط الكبيرة لـ«نظرية الأقاليم»؛فهو يعرف كيف يشك، ويبدو أنه كان المؤلف الوحيد الذي أدرك بثاقب نظر كيف تخضع الوقائع لنقد عاقل .

بقدر ما كانت القرون الوسطى قليلة الاستعداد للانفتاح على الانسان « المختلف » ، أبدت النهضة أنها سابقة التهيؤ لهذا الانفتاح . وفي هذا المجال الواسع لإعادة طرح الاسئلة ، لعبت الشعوب الدخيلة دوراً لا يستهان به . لأن « الاكتشافات الكبيرة » والأسفار انتهت الى تمازج المجتمعات التي كانت ، في ما سبق ، غير مشكوك في عرقيتهـــا : فكانت المجتمعات الاوقيانوسية ، والاوسترالية ، والأميركوهندية . ولكن هـذه الأفكار المقبولة أصيبت بهزه إذ ان بعض المفاهيم التقليديـة أُعيد النظر فيهـــا . فأصبح دمج الشعوب الجديـــدة في نطاق الهيكل الكلاسيكي ، الوافدين عليه ، أمـــراً تزداد

صعوبته ، يوماً بعد يوم ؛ وأصبح ما يجمع من الوثائق المتناولة علاقات السفر يزداد أهمية ، يوماً بعد يوم ، أيضاً . وهوذا نحن نذكر في هذا المعنى بوثائق جان فونتينو الذي كان أول من حاولوا تصنيف القبائل الاميركوهندية ، وفيللغانيون وجان دي ليري ، من الرحالة البورتوغاليين ، والاسبان : لاس كازاس[1] ، وساهاغون ، الخ . وهناك جامعو مؤلفات مقتبسة حاولوا أن ينهجوا ما جمعوه ، مثل اندره تيفي في كتابه « منجم الملك » ، وقد كان هذا الكاتب ، في الوقت نفسه ، منظم المجموعات الدخيلة في اللوفر . وابتداء من اواسط القرن السادس عشر ، أخذت تظهر مطبوعات مثل : « أسفار كبيرة » للمؤلفين : راموزيو ، ودي بري ، ووالتير راليه . ولم يعض الغرب وحده متقدماً العوالم الجديدة ، بل كان لأوروبا أصلاء من أميركا أو اوقيانا ؛ وهؤلاء كانوا من الوافدين ، مثلاً في مناسبات أعياد او حفلات تتويج . وهكذا ولّد ظهور هذه الانسانيات البعيدة مجاري من الفكر امتدت في اتجاهات معاكسة : فمن هنا ، قسم من الرأي كان يستطرد رفضه ، في القبلية ، المبالغة في احترام الذات البشرية؛ ومن هناك احتمالان:

---

١ ـ اسقف اسباني (١٤٧٤ ـ ١٥٦٦) دافع عن الهنود ضد اضطهاد الغزاة القاسي .(المترجم)

أولاً ، احتمال جهد يصل بين هذه المجتمعات المتنكرة للحقيقة والمنطق وبين ظهور من ذُكروا في الكتاب المقدس ، وهم قبائل اسرائيلية ضالة ، من نسل حام ، « شعوب ملعونة نبذها الله » . وأخيراً ، هرب نحو الميثولوجيا ذات المظهر المتجاوز كل حدّ ، الذي يعود الى اعتماد « تيراتولوجيا »[1] القرون المتوسطة . ومن جهة أخرى ، يجري الامر على العكس ، اذ تولد موضوعات جديدة ، إما فلسفية ، وإما ميثولوجية تقوّم نظاماً المجتمعات الدخيلة ، وفقاً لمفاهيمها : فالنظرية المعروفة بـ « المتوحش الخيّر » تقدمها كأنها مصونة من كل عطل وثيق الصلة بالحضارة ، وباق ، بصورة عجيبة ، على « حالته الطبيعية » ، التي تستطيع أن تعطي دروساً لأوروبا العجوز . وقد تمادوا في التفكير ، دون أن يفهموا خطر ما ينتج عن هذا التمادي ، إذ انهم اعتقدوا أن المتوحشين يمكن أن يكونوا معصومين عن الخطيئة الجدية . وقد وضعت ، في هذا الحيّز من التفكير ، الموضوعات الملحقة بمجرى جوفانس ، في الالدورادو[2] ، والمتبقية من العهد الذهبي المحفوظ في هذه الفراديس الارضية التي عُثر عليها مجدداً .

---

١ - فرع من العلوم الطبيعية يحدث عن المسوخ والاجسام غير الطبيعية . (المترجم)

٢ - بلد من صنع الاساطير والخرافات يزعمونه بلاد الذهب . (المترجم)

٣ - القرنان السابع عشر
والثامن عشر

١ - من الاتبّاعية الى الاستيرادية . - لقد بقي اعتماد العصور القديمة ، المستوحى الذهني الثابت للقرن السابع عشر . والوثائق الجديدة التي كان ينقلها المسافرون كانت تترجَم تمهيداً لوضعها موضع الدرس الانساني الكبير القديم . ولكن هذا الاعتماد المرجعي نفسه كان يجيز المقارنة الأولى ، والوضع التقويمي للمجتمعات البشرية . فكانت البداية في التصميم على شرح التراث الأقدم التاريخي بواسطة « القديم » المعاصر ، والعكس بالعكس . ومن هذا الوضع التقويمي للمجتمعات غير الأوروبية ، الى الوضع التقويمي للمجتمعات الاوروبية ، كان البعد خطوة : وكان عصر الفلاسفة الذي سيجتازها .

على كل حال ، لم يكتف القرن السابع عشر بفضوله النازع الى المعرفة ، بل بدأ يفكر في الاختبارات التي حملت اليه من خلف البحار .

وراحت « العلاقات السفرية » تكشف ، يوماً بعد يوم ، عن وجود مجتمعات يكثر عددها كما تختلف اوضاعها ؛ وبينها الكثير مما كتبه المبشرون المرسَلون نذكر منهم الآباء : الأب ديفرو ، وبيلليبرا ، و دو تيرتر ؛ كما نذكر مؤلَّفاً للأب ابيفيل

وهو حكاية تتناول الهنود ، بشكل مشوق ومفصل . وجاء فرانسوا بيرنيه ففتح طريق الاستشراق ؛ فخطط لنموذجية انسانية تناول فيها مختلف أنسال البشر . وتبعه لاهونتان ، وليسكاربو فاتخذا ملاحظة « الاخلاق والعادات » والطبائع ذريعة لينتقدا المجتمعات الاوروبية ؛ وهكذا دشنا معارضة الاستعمار .

والموازنات الثقافية في هذه الدراسة الوصفية المقارنة ، تتناول المجتمعات التي عرفها جيداً المؤلفون الموسوعيون وحدها: مجتمعات اليونان ، والرومان ، واليهود . وعشرات المؤلفات ستتناوب هذا الموضوع على مدى العصر [١] .

والمفاهيم المسبقة التقليدية مستمرة في أماكن أخرى ، تلعب دورها دائماً على الصعيدين اللذين ذكرناهما : فالموقف مشوب باستناده الى اقلية ، من الآن فصاعداً ، وهو معارض بحدية ، منتسب الى جان جاك روسو بالنقاوة « الساذجة » المعادلة « طبعية » المتوحشين الاطياب .

ولكن نوعاً من الدرس المقارن للمفارقات في العقائد والبنيات الاجتماعية قبل ظهور الحرف ، بقي متماثل الوجوه البادية من خلال اشغال كثيرة ، مختلفة الاتجاهات اختلافاً كبيراً : فالأب

١ ـ راجع كتاب لاكريكتنيير : تطبيق العادات عند الهنود الشرقيين مع عادات اليهود وشعوب العصور القديمة الآخرين .

ساغار يشرح ، دون ابهام، المقصود الاساسي من نظرية الأقاليم، التي تناولها مجدداً مونتيسكيو فجعلها مشهورة . واسحق فوسيوس ، في كتابه « لاهوت اللطفاء وفيسيولوجيا المسيحية » جاء سابقاً ما عُرف في ما بعد ، بتاريخ الاديان . وفوتينيل ، في كتابه « تاريخ أجوبة الآلهة » ، يحلل معاني القصص الميثولوجية ويعلن ميثولوجيا مقارنة . و « القاموس التاريخي النقدي » لبايل ، وهو احد الكتب التي يفضلها فولتير ، ينتهي الى النسبية ويحاول الوضع التقويمي للاخلاق .

ويبدو ان الاستيرادية تنصب على انسانية جديدة تتخلص من الارث القديم ؛ ولكن القرن الثامن عشر استطاع ان يتوصل حقيقة ، الى اول رؤيا تتناول درس المفارقات الاساسية في المجتمعات ، وذلك بنقله درس الانسان من الصعيد الادبي الذاتي الوصفي ، الى الصعيد العلمي .

٢ ـ محول القرن الثامن عشر : الدرس الانتربولوجي الاول . ـ اننا مدينون بالتعبير الأول المتناول درس المفارقات الاساسية في المجتمعات للرحّالة والفلاسفة وعلماء الطبيعة ، في ثلاثة حقول يكمل بعضها بعضاً ، وهي :

أ) رحالة ومقارنون . ـ ان انفتاح العالم الغربي على ما خلف البحار اكتسب أبعاداً عالمية : فأصبح حقل معرفة الانسان الدخيل يشمل مجموع القارات . ونحن لا نستطيع هنا

أن نذكّر بتاريخ التماسّ المعقود مع الشعوب « الغريبة » . فيكفينا ان ننوه بمكتشفي اوقيانيا وهم: كوك ، وفورستير ، وباركنسون ، ولابيروز ، وروجيفين ، وفانكوفير ، وان نذكر الريادات الكاشفة عن طبيعة افريقيا ، التي قام بها الآكوسيان : ج. بروس ، ومونغو بارك ، والتي تمت بأسفار في البلاد العربية ، وبتأثير ارساليات الشرق ، واميركا . وابتداء من الوثائق التي جمعها رواد الاستكشاف الذين كتبوا مشاهداتهم ، يمكننا ان نبني ركائز عرقية كاملة تتناول الماضي . وبين الكتب المجموعة من مقتبسات ومجتزآت ، وكتب التاريخ العامة ، التي كانت تنشر آنذاك ، نعير انتباهاً خاصاً تعاليل بريفو [١] والرئيس دي بروس [٢] .

لا يكفي ان نعرض الوثيقة ، بل يجب ان نحاول تفسيرها ، فمن هذا ينتج جهد عقلي ينطلق من السفر الفلسفي لينتهي الى الانتربولوجيا المقارنة . كما هي الحال في : الموازنات الثقافية

---

١ ـ كاتب فرنسي (١٨٦٢ ـ ١٩٤١) مؤلف روايات في علم النفس . وصاحب « أنصاف العذارى » التي استحق بها عضوية الاكاديمية الفرنسية . (المترجم)

٢ ـ قاض وكاتب فرنسي (١٧٠٩ ـ ١٧٧٧) عالم عرقي وألسني . مؤلف « رسائل عائلية » تحدث فيها عن سفرة الى ايطاليا . (المترجم)

المصورة ، في ما قام به ديمونيه في كتابه « روح الاستعمال والعادات عند مختلف الشعوب » ، وفي ما جاء به لافيتو في كتابه: « اخلاق المتوحشين الاميركيين» مقارنة بأخلاق الازمنة الاولى ، وكذلك ما ورد في كتاب « مصدر الشرائع والفنون والعلوم وتراقيها عند الشعوب القديمة » لصاحبه غوغي. وقد تناول هذا البحث المقارن ، بصورة طوعية ، العقائد الدينية [1] كغرض له ، ومن المرجح ان الفكر الحر والتطور الفلسفي كانا متأثرين مباشرة بالوثائق المستوردة ، حتى ولو كانت هذه الوثائق قد جمعت لمقاصد امتداح .

إن التفكير حول الانسان الدخيل تتزايد صفته النقدية يوماً بعد يوم ، ويحمل على استخلاص درس قيّم بالنسبة الى الانسان الغربي . وفي هذا الصدد لم يكن لأي كتاب ، في هذا الموضوع ، من الاصداء البعيدة المدى ما كان لكتاب « التاريخ الفلسفي والسياسي لمؤسسات تجارة الاوروبيين في الهندين » ، وهو أحد المؤلفات التي قامت عليها الفكرة المعادية للاستعمار ، للمؤرخ الفيلسوف الأباتي رينال ، صاحب الانفتاح الروحي العقلي الواسع . وقد ألزم نفسه أن يصف حسنات « حالة

---

١ ـ راجع: اصل آلهة الوثنية ، لأباتي بيرجيه ؛ وموازنة الأديان، في خمسة اجزاء ، للأب برونه ؛ والقاموس التاريخي للطقوس الدينية ـ لمؤلفه ج. ف. دي لاكروا .

الطبيعة » التي يعارض بها « حالة الحضارة » ، معترفاً بأنه لا مفر من التطور التقني ، ومدافعاً عن رأيه في تفضيل الحالة الأولى على الثانية. ولكنه ينظر ان نعيد الاعتبار «للمتوحشين» ، وفي هذا يقول : « ان هناك رجالاً ، في ظل امبراطورية الشرف والشرائع الدينية والمدنية ، لا تحمر وجوههم من أن يعملوا ما لا يعمله متوحش متحرر من كل ما يمنعه من ارتكاب ما ارتكب أولئك » ، وأضاف الى هذا قوله : « ... كلمة تستطيع أن تختم هذه الدعوى الكبيرة (بين الحالتين). اسألوا الرجل المتمدن اذا كان سعيداً ؟ واسألوا الرجل المتوحش ان كان تاعساً ؟ فإن كان الجوابان : لا ، فالنزاع انتهى ... اننا لا نتعلم في الغابات احتقار الانسان وحذرنا منه ، بل نتعلم هذا في وسط المجتمعات المجهزة بالبوليس » . ويلح على اظهار الثقافة انها في طريق الصيرورة الى مسخ لا حدود له ولا قياس بالنسبة إلى الانسان . ولدينا بعض المعارف المعلمة التي ترسل صدى متفرداً بعصريته وهو : « الانسان ، بلا ريب ، مخلوق للمجتمع . وله من ضعفه وحاجاته خير شاهد . ولكن مجتمعات بين ٢٠ الى ٣٠ مليون انسان ، ومدناً سكان الواحدة منها بين اربع وخمسمائة نسمة ، تعتبر مسوخاً في الطبيعة » . ونحن بعيدون عن عقائد القرون الوسطى : فالعنصر التيراتولوجيكي ، يعني الحدّث عن المسوخ والاجسام غير الطبيعية ، لم يعد في احضان

المجتمعات العصرية . فهلاّ قِسنا ما اجتزناه من الطريق !

ب) فلاسفة وعلماء طبيعة . ــ الفلاسفة ، بلا ريب ، هم خالقو العلوم الانسانية ، لأنهم فهموا التغيّر الذي يحدث في المجتمعات تأثراً بأسباب الحياة في البيئة ، ولأنهم استطاعوا أن يمزقوا الغشاء عن انسانية الانسان « الابيض ، والمسيحي ، والمتمدن » ، بتقبلهم المعطيات المستوردة تقبلاً واسعاً .

ولكن بمجلوباتهم ذات معان متفاوتة القيم ، فمونتسكيو أعاد البحث في نظرية الاقاليم متعمقاً فيها ، واذا كان كتابه « روح الشرائع » ، يعلن التحديدية في القطاعات المجتمعية ، فانه في « الرسائل الفارسية » لا يأتي بأي محتمل عرقي . وعلى هذا الأساس ، نرى « ملحق سفر بوغينفيل » لديديرو ، كتاباً نقدياً لاذعاً ووثيقة تحمل باكورة من معارضة الاستعمار . أما الحقيقة فهي أن روسو وفولتير ، هذين المدوين اللذين لا يمكن أن نفصل بينهما ، يبقيان موضع اهتمامنا بشكل خاص . ويبقى روسو ذلك الرائد الداهية ، الذي نوّه ، ببروز دخيله تنويهاً مشدداً ، كلود ليفي ــ شتروس ، قائلاً إنه بدّل شكل مسألة « المتوحش الخيّر » ويراوح الفكر التي تقبّلها في هيكل تصاميمه . ولكنه بدا منحازاً يهاجم « مصدر اللامساواة بين الناس » ، ثم يعيد بناء قواعد الحياة الاجتماعية في كتابه : «العقد الاجتماعي» ، هذا الكتاب الذي بدا فيه جلياً أنه لا يكتفي باعادة النظر في أسس المجتمع ، بل يعظم

شأن الآراء التي سبق اليها ، في تبديل الأساس . والحقيقة هي أن هذا البروتيستنتي مدين بالكثير لليسوعيين . فقد قلّد أعمال الأب بوفيّيه ، الذي كان أول من امتدح الاصلاء في بلادهم ، وأول من تكلم عنهم ، أليس هناك أصل العبادة التي أصبحت مشهورة ؟ — من « العقد الشكلي أو الماضي المبطن بين كل الناس » .

ونجد شيئاً من هذا عند فولتير المعادي للاستعمار ، ولكن في شكل مقيس ، لأنه ، إن كان يدين الأفراط ، فانه يعتبر تمدين هذه المجتمعات المتخلفة واجباً ، على نحو ما كان يحقق اليسوعيون ، الذين كان يقدمهم مثلاً ، مستمداً حرية الروح . ويجب أن نعلم أيضاً على نحو ما يريد فولتير ، كيف تكون طرفاً في حرب ضد مبدأ التوحش ، المطبق باسراف على شعوب يلاحظ أنها أقل وحشية من بعض شعوب اوروبا ، وأقل همجية أيضاً من الشعوب التي تتحمل ، دون أن تحاول التفلت ، الاستعباد الذي يمسكهم فيه حكامهم . وفي هذا نلاحظ مفاهيم الفيلسوف الاريستقراطية . ولكن نتاج فولتير ، على صعيد التاريخ الثقافي المقارن ، هام ، على الغالب ، في كتابه « تجربة على الأخلاق » الذي صدر ١٧٥٦ ، مستنداً بشكل واسع الى الوثائق العرقية ، المهذّبة في محاولة منهجية . انه يقدم تصانيف ، هي بلا شك ، مشددة التصنيف ، ولكنها

قائمة على مفهوم من روح النسبية الثقافية والموضوعية . وفي سنة ١٧٦٥ ، استعمل فولتير تعبير « فيلسوف تاريخ » لأول مرة . والجدير بالذكر أن ظهور مفاهيم النشوء والارتقاء ، التيظهرت في القرن الثامن عشر ، مدين بوجوده ، في الغالب ، للتفكير الفولتيري، المرتكز على الوثائق المحمولة من خلف البحار . وقد كتب الأب ميرسيه يقول : إن ج. كليم ، أحد أوائل الذين منهجوا العرقية ، أن فولتير في طليعة دارسي مفارقات العقائد والمؤسسات المعروفة كأساس للبنيات الاجتماعية ، كما أنه يوليه ثقة تجعله أول أصحاب التفكير المعني بماهية الثقافة .

وفي نطاق هذه الدائرة من وصف شؤون الفكر نجد أن معظم الكتب الصادرة، حتى الاكثر شهرة منها ، والأكثر تواضعاً ، كلها جاءت لاحقة ، زمناً وتفكيراً ، كتاب (تجربة على الأخلاق) . نستثني من هذه التبعية مؤلّفاً لتورغو اسمه : « جدول فلسفي في ارتقاء الفكر الانساني » نشر سنة ١٧٥٠. وسنذكر من الخارج أسماء مؤلفين نبغوا من هذا النحو أمثال : كاتيللوكس ، في فرنسا ، وهيردير ، في المانيا ، وفيكو ، في ايطاليا ، وفيرغوس في بريطانيا العظمى ؛ أما محاولات التعليل، فنذكر منها « جدول تاريخي في ارتقاءالفكر الانساني» للماركيز دي كوندورسه [١] . ولكنه من المؤكد أن التجديدات في

[١] رياضي ، وفيلسوف ، ورجل دولة واقتصاد (١٧٤٣ - ١٧٩٤).

البنيات العامة كانت ، في الوقت نفسه ، ذات تنظيم تعسفي وذات دفع فكري سابق الأوان : فالتعليل جاء قبل التحليل .

ومع هذا ، فقد تغيّر شيء ما، بصورة لا تستعاد: فالانسان صار موضوع درس ، ولكن بصورة فاترة ، بُدِىءَ درسه كأنه موضوع علمي . والتعبير المقول : (علم الانسان) تعبير يعود استعماله ، أول مرة ، على حد قول ج. غوسدورف [١] ، الى سنة ١٧٣٩ ، في (معالجة الطبيعة الانسانية) وهي كتاب لمعتنِق الاختبارية هوم [٢] ، الذي حاول سنة ١٧٥٧ أن يكتب تاريخاً طبيعياً للدين .

هذا العلم الانساني بدأ كثيرون من الباحثين الجريئين بناءه على صعيد علم الحياة : هؤلاء هم علماء الطبيعة . والمسألة القديمة الكبيرة من هذا النوع نجدها مطروحة بصراحة . فالايطالي ميركاتي ، في كتابه « Métallothèque » الذي نشر ١٧١٧ ، بعد أن مات مؤلفه ١٥٩٣ ، يؤكد بصراحة ان حجارة الصاعقة

رئيس المجلس التشريعي ونائب في الجمعية العامة . تظم التعليم الرسمي في فرنسا . وعندما سجن في الثورة ، انتحر مسموماً . وقد ألف في سجنه كتابه المذكور اعلاه . (المترجم)

(١) ورد قوله هذا في : من اجل تاريخ علوم الانسان ، ديوجين رقم ١٧ ، كانون الثاني ١٩٥٧ .

(٢) فيلسوف ومؤرخ اسكتلندي (١٧١١ - ١٧٧٦) ؛ واضع الفلسفة القاموسية ومؤلف « تجارب على المفهوم الانساني » ١٧٤٨ . (المترجم)

كانت حاصل صناعة الانسان . وقد تتالى جوسيو سنة ١٧٢٣ والأب لافيتو ١٧٢٤ ، على القيام بأول تقارب بين بعض الأدوات الحديثة وأدوات الصوان المفصّل ، التي ما تزال مستعملة عند أصلاء بعض البلاد . وعلى الرغم من الرفض العنيد الذي تتمسك به أكاديمية التسجيلات ، التي لم تنفصل عن أضيق حرف من الكتاب المقدس ، ولنا في ذلك أول مثل على الملاحظة في دراسة العرقية ، المعينة على إلقاء الضوء على استعمال قديم اختفى . وهذه الطريقة التي كانت مستعملة ، منذ زمن طويل ، أخذت منطلقاً لامعاً ، عندما كشفت ، فجأة ، حقيقة مجتمعات الانسان البدائي القديمة . وفي سنة ١٧٥٨ ، وضع غوغي مبدأ مراحل النشوء ، مقوماً مسلسل : الحجر ، والنحاس ، والحديد. وفي سنة ١٧٩٧ ، كشف المنقّب الانكليزي ، في السوفولك على بحر الشمال ، عن أدوات صوانية مجتمعة مع حيوانات ثديية اختفت أنواعها ؛ وعلى افتراض قبول معاصَرة هذه الادوات والعظام ، كان أول من خلُص الى أبعد قدم عرفه الانسان . وفي نهاية القرن ، كانت حجارة الصاعقة قد فتحت فجوة ذات أهمية في المعتقدات والتعاليم المذهبية . وعلى موازاة من هذه ، كانت ترتسم حركة بدأت خفية ، ثم راحت تشتهر شيئاً فشيئاً ، غايتها درس الانسان ، بوصفه جماعة من الاحياء . وهكذا اعتُمدت تجاوزات الثورة الهائلة ، والجرأة الفكرية

التي كانت قد فرضت نفسها واقعاً لا بد منه . وهذا هو كل الممر الكائن ، بصورة حاسمة ، بين مفهوم (الجنس البشري) ومفهوم (النوع الانساني) .

وكان الانكليزي جان راي أول من استعمل لفظة (نوع) في علم النبات ، سنة ١٦٨٦ . ومن المعلوم أيضاً أن الأسوجي لينّه عمق هذا المبدأ وجعل منه العنصر المفتاح لاعادة بناء هذا العلم . فكتابه « النظام الطبيعي » سنة ١٧٣٥ أعاد الانسان الى مكانه في سلسلة الحيوانات ، وركز ستة أقسام من الانسان : المتوحش ، والاوروبي ، والأميركي ، والاسيوي ، والافريقي ، والمسخ . وهذا القسم المتألف من المسوخ ، يتناول المختلفات الملائمة للتعبير عن النماذج ، ضد الحقيقة والمنطق ، المتبقية أثراً للماضي ، الذي كانت فيه حقائق مقبولة ورؤى تنجيم ، وقصص ميثولوجيا من القرون المتوسطة ، وصدى لعلاقات المسافرين على مناكب العمالقة ، والأقزام ، والناس الكلاب .

والتجربة التالية ، وهي لبلومنباخ ، تسجل تقدماً صافياً . فالعالم من المدينة الالمانية غوتنجن ، عمل كثيراً في التشريح ، وفي مؤلفيه : (النوعيات البشرية) ، سنة ١٧٧٥ ، و(العشرة أجزاء المخية) (١٧٩٠ — ١٨٠٨) ، يعيد تجميع الانسانية خمسة نماذج سلالية : القوقازيين ، والمغول ، والاثيوبيين (الافريقيين) ، والهنود ، والملازيين . وبلومنباخ عالم تشريح

حقاً ؛ فانه حدد قياسات ، مثل الاستقامة العمودية ، ووصف بعناية مختلف المميزات السلالية . ولكن علم التشريح ولد مع سيبجيليوس ، وكامبير ، و ش. وايت ، وبريشاد . ويبقى أن نذكر بأن عمل بوفون ، وهو أعقد مما يظن غالبا ، يستحق أن نخصه باشارة ؛ فكتابه تاريخ « الانسان الطبيعي » يغطي قسماً كبيراً من حقل العلم العرقي ، كما حلم به بروكا ؛ والمؤلف يعالج مفارقات المجتمعات الفيزيولوجية ، كما جاء في خطابه على « الحواس » ، وعلى تناسب الجسم البشري عند الزنوج ، وعلى الفيزيولوجيا المقارنة ، وعلى حالة التقليل من الاكل أو الامتناع عنه (بحكم تأثير المناخ على الفيزياء ، وحالات الانسان في مختلف مراحل العمر في الحياة) وعلى دراسة اللغات علمياً (دراسة تتناول تقدم اللغات) . وهكذا يصبح الفيلسوف « الطبيعي العالم » محيطاً ، تقريباً ، بكل هذه المجموعة من الأسباب والعوامل العرقية ، التي تتشعب وتعود فتلتئم في تعاقب مستمر حتى ايامنا هذه ، ونحن نتأهب لظهور (انتروبولوجيا عامة) حقيقية .

٢ | في ما بعد العرقية : ايديولوجيون مع انبثاق العلوم الانسانية

١ - المسائل الاصطلاحية لأسماء العرقية

خلال زمن الثورةوما قبل الثورة ، ظهرت التعابير الجديدة التي نُعت بها علم الانسان ، وقد كانت تتناول درس المفارقات الكائنة بين السلالات ، والعروق ، والثقافات .

ولقد كانت كلمة « انتروبولوجيا » أقدم التعابير . ونحن ، هنا ، نترك جانباً استعمالها القديم ، الذي كان يعني طريقة من التعبير الرمزي ، او بشكل آخر ، احتمال صورة ذهنية تتعلق بالمخلوق البشري . فكولومبين [1] ، مثلاً كانت شيئاً من الانتروبولوجيا في المسرح الهزلي الايطالي . وفي مجرى القرن

- شخصية من المسرح الايطالي بلغت شهرة واسعة في الحيوية . وكانت تظهر غالباً في دور الوصيف او الوصيفة . (المترجم)

الثامن عشر صارت تعني «معالجة تتناول روح الانسان وجسده».
ولكن يبدو ان علماء الطبيعة هم الذين سمّوا انتروبولوجيا كل ما يعنونه في نطاق التاريخ الطبيعي ، في المحور الوصفي الذي التزمه هيوم : فكان النزوع الى تبديد الخطأ والخداع في درس الانسان ، والى العودة به الى هيكليات علم الأحياء منذ الخليقة .
وكان أول من أدخل « التاريخ الطبيعي »، وفي نطاق الدراسات الجامعية ، العالم الطبيعي الالمـــاني ج. ف. بلومنباخ ، وأول مؤلف استعمل هذا التعبير ، سنة ١٧٩٥ ، في الطبعة الثالثة من مؤلّفه « السلالات البشرية في تنوعها الطبيعي» .ولكن كانط، سنة ١٧٩٨ ، أثار الانتباه ولفت الانظار الى هذا الكتاب ، قبل أن يغشاه النسيان ، عندما نشر كتابه : « الانتربولوجيا القائمة على درس الوقائع » . ودون أن نجعل من كانط عالمـــاً عرقياً ، نذكّر بأن هذا الفيلسوف الكبير هو أيضـــاً عبقري جامع ، علّم في ما علّم ، الأخذ بدرس السلالات ؛ ولذلك اقترح تصنيفاً للسلالات البشرية . وقد كان ولوعـــاً بالاصغاء الى حكايات الرحالة .

الكلمتان « عرقية » و « خصائص العرقية » ، جديدتان لفظاً واستعمالاً . ولكنهما عرفتا متحولا بالمعنى الى نواح مختلفة غلب عليها الرديء . فالعرقية ظهرت ، سنة ١٧٨٧ ، في كتاب وضعه شافانّ أسماه : « محاولة في التربية العقلية مع مشروع علم

جديد » . وبما أن هذا المؤلف موسوعي وفيلسوف، أظهر فيه نزوعاً الى الخلقيات ، ناظراً في هذا السلوك فرعاً للتاريخ ، او بتعبير أدق ، فرعاً لفلسفة التاريخ ، مختصاً بدرس مراحل الانسان في سيره نحو الحضارة ، وفي نطاق من التطور ، قبل عهد البشرية بالحرف . ولكن العرقية، سرعان ما تناولت قبولا سلالياً ، عندما خططت للعلم ان يقتصر على تحليل المميزات الفارقة بين مختلف نماذج البشر ، وعلى درس نشأة المجموعات السلالية . ولم تأخذ الكلمة معناها الحالي إلا في أوائل القرن العشرين .

أما تعبير « خصائص العرقية » ، فقد عرف أيضا مختلفاً من التغير في اوضاع البشر . لأن ظهور الكلمة جاء متأخراً عن أوانه ؛ وكأنها مدينة بوجودها للمؤرخ الالماني ب. ج. نيبوهر، ابن الرحالة والمستعرب كارستين نيبوهر ، الذي استعمل هذا التعبير في سياق تدريسه ، في جامعة برلين، حوالي سنة ١٨١٠. وكذلك فان الايطالي بالبي ، الذي استقر في باريس، مدة اثنتي عشرة سنة ، استعمل هذا التعبير كثيراً حتى جعله شعبياً في كثير من كتبه المؤلفة بالفرنسية ، وبشكل خاص ، في أطلسه الذي صدر ، سنة ١٨٢٨ ، تحت اسم « أطلس الكرة الايتنوغرافي » . ومن رافق تحليل العرقية ، منذ نشأته ، رأى أنه كان ، أولاً ، تصنيفاً لجماعات بشرية ، ابتداء من وصف

مميزات المشابهة طبيعة ولغة ؛ ثم يرى أن الجهد التمييزي واجه عناصر مختلفة من الثقافة المادية . وأخيراً ، يبدو للناظر المدقق نزوع العرقية ووصف العرقية الى أن يكون المحتوى الزمـــني لبحث واحد ؛ فالتحليل الوصفي العرقي يجمع وثائق الأساس ، والتعليل العرقي يتدبر أمر تفسيرها .

٢ ـ الايديولوجيون و « علم الانسان »

بين ثورة فرنسا الكبرى ، وبين سقوط الامبراطورية الأولى ، ولد عالم جديد ؛ فهذا الردح من الزمن واصل متحرك بين عالمـين : عالم النظام القديم القائم على التسليم بما يوحى ويعلن ، وعـــالم جديد منفتح على الاختبار ، هيّأ مباشرة ظهور علوم الانسان ، التي جاء اكثرها مع القرن التاسع عشر . وغالباً ما كان البحث الذي يقوم به الموسوعيون او الرحالة في ما بعـــد العرقية ، ولكن الغاية منه كانت تأسيس عـلم انساني حقيقي ، بعيداً عن المناقشات والنظريات الفلسفية ، أو المقاربات الأدبية . عـــلم يتناول مختلف النشاطات الانسانيـــة ، ومختلف المظاهر الفيزيائية والخلقية التي يتصف بها الانسان. علم موضوعي يستبعد كل مفهوم مُسبق ، سواء أكان فلسفياً أم دينياً .

ومن أولئك الموسوعيين ، المختلفي التكوين الفكري ، الذين اهتموا اهتماماً مهووساً بالانسان ، نذكر : ديستوت دي تراسي

في كتابه « عناصر ايديولوجيا » ، ١٨٠٤ ، وكابيـــني ، في « علاقات الفيزياء والأخلاق » ١٧٩٩ ، ودونو ، وفولنـاي ، وجوفري ، ودي جيراندو .

فولناي مؤرخ علّم في دار المعلمين التي أنشأتها الجمعية التأسيسية ولكنها مؤسسة مرت ظلاً عابراً . وقد ترك كتابه « دروس في التاريخ » سنة ١٧٩٥ ، صدى دائماً لما علّم؛ فهي تصوّر عظـم وضعه الفريد . وهو وضع سجله على صعيـــد التنميط كما على صعيد التطبيق . وعالم الايديولوجيا مرهف السمع دائماً للشروط المدرسية في تكوين الفكر ، فهو يريد ان يحاول جردة حساب لهذا المجموع الضخم من الحروب ، والقتـــلى ، والخرائب ، والانحدارات نحو الشر ، مما عرفته البشرية . وهو يشـير الى أن كل ما يجري حاصل ، كما لو كان الجنس البشري قائماً بصورة دائمة ، بتجربة حياتية أو فيزيولوجية لا حد لها ؛ وهي تجربة ما من أحد يهتم بأن يجمع معطياتها المتزايدة . انها اختبار لا ارادي ، ولكنه حقيقي يضع ، في تحركها الوظيفي ، جميـع الدوافع الـتي تبث الحيـــاة في الآلة البشرية . والهدف أن نصل الى تأسيس العمل الايجابي على المعطيات العلمية . ولكن اجتماع العناصر المختلفة بهذا الاختلاف الكبير ، وتسجيل أعمال الانسان ، لا يمكن أن تنساق الى الخير دون أن تتهيأ له عقلية شروط البيئة . وهنا يتمثل لنا فولناي وكأنه رائد مزدوج :

رائد تاريخ جغرافي ورائد جغرافيا بشرية . انه يشعر جيداً بالخلل في المعالجات المؤلفة قبله ، لأنه يعتبر أن الطريقة المقترحة تؤسس « جنساً جديداً » . وهكذا ، فانه ، ابتداء من فولناي ، ولد التزاوج التاريخي ـ الجغرافي ، الذي ما يزال باقياً حتى اليوم ، على الرغم من ارادة الجغرافيين المعلنة استقلالهم الذاتي ، منذ أكثر من قرن وربع القرن ، بعده . ولكن هذا الدرس أغفل في ما بعد . وكان علينا أن ننتظر مارك بلوك ومدرسته لكي نعود الى مفهوم جغرافية التاريخ . ففي سنة ١٧٨٧ ، نشر فولناي كتابه : « رحلة الى سوريا ومصر » ، هذا الكتاب الذي لفت الانتباه الى اهمية آثار وادي النيل ، لبضع سنوات قبل مجيء علماء حملة بونابرت الى ذلك الوادي .

يعتبر جيراندي واحداً ممن قادوا حملة الارشاد الى توفير الأدلة على ماهية العرقية ، في شكل « مجموعة أسئلة » ظهرت في مناسبة سفر البعثة الاكتشافية ، التي قادها الكابتين بودين الى الأراضي الاوسترالية (١٨٠٠ – ١٨٠٤) . وفي وثيقة هذه البعثة ، نجد القاعدة الذهبية لـ « المسالم المراقب » ، وقد سبقت مالينويسكي مئة وخمسة وعشرين عاماً ؛ هذه القاعدة التي تقول : « أولى الوسائل ، لمعرفة المتوحشين معرفة جيدة ، هي في أن تصبح واحداً منهم ، بشكل ما » . وفي « متحف الانسان » نسخة عن هذا النص تشتمل على ٤٧ صفحة ، بعنوان « اعتبارات

تتناول مختلف الطرق التي يجب أن تتبع في مراقبة الشعوب المتوحشة » . وهذه التعليمات ملخص وقائع جلسة « جمعية المحافظين على الانسان » ، في ٢٨ فروكتيدور [١] من السنة الثامنة (أي سنة ١٧٩٩) .

وقد دشن جوفريه ، العالم الطبيعي والفيلسوف ، تدريس (تاريخ الانسان الطبيعي) في باريس ومرسيليا ، بأول منهج نظامي يتناول العرقية المقارنة . ومن جهة أخرى ، كان له الفضل في ولادة المشروع القاضي بوجود جماعات دائمة تتخصص في بحث العرقية ، في أوسع مفهوم الكلمة ؛ وجاء اهتمامه هذا سابقا (متحف تروكاديرو) بزمن طويل . وكذلك جاءت مذكراته لتأسيس متحف انتروبولوجي ، سنة ١٨٠٣ ، اقتراحا حقيقياً لإنشاء « متحف الانسان » . واخيراً كان جوفريه الأمين العام لجمعية المحافظين على الانسان ، التي كان عملها على جانب كبير من الأهمية . ولكن هذه الجمعية العلمية ولدت سنة ١٧٩٩ وانتهت سنة ١٨٠٥ . ولا بد من أن تكون قد أثارت قلق نابوليون . وفي نطاق البحث في هذه الانسانيات ، عادت هذه الجمعية ، ولكن تحت اسم آخر : « جمعية الرفق بالانسان » . وكانت تجمع عدداً من الفلاسفة والموسوعيين المتشوفين الى دراسة

١ ـ وهو الشهر الثاني عشر ، في التقويم الذي وضعه الجمهوريون غب الثورة . (المترجم)

الانسان روحاً وجسداً ، كما تجمع مفكرين من مختلف الثقافات خارج كل تفسير مسبق ، أو طموح مخبوء للوصول الى السلطة. وقد تألف أعضاؤها من الأطباء وعلماء الطبيعة ، والمؤرخين ، والقضاة ، الذين كانوا فلاسفة أيضاً . ولكن الغاية ، هذه المرة، اختلفت عنها في ما سبق ، فلم ينصرف الاهتمام الى اعتبارات نظرية تتناول الانسانية عامة ؛ وإنما تتناول الانسان المحسوس، موضوع درس ايجابي اختباري. لذلك عمد المعنيون بهذه الدراسات الى تنظيم بعثات يكون في مهماتها تأليف جمعيات تدرس الانسان خارج بلادها ، وهكذا بدأ الأخذ باعتبار مشاريع الرحالة . فكان أن أخذت الجمعية تهتم برحلة بودين الى اراضي اوستراليا. وفي هذه المناسبة ، كما أشرنا في ما تقدم ، ألف جيراندو مجموعة من الأسئلة ، وبعثة خاصة بهذا الشأن . ولا بد من الاشارة الى ان جيراندو ، ولا سيما جوفريه، يبدوان مشتركين اشتراكاً رئيسياً في أعمال هذه الجمعية ، وأثر هذه المشاركة كشف عن معلومات معينة ترسم برنامجاً يتناول ملفاً كاملاً من الأبحاث العرقية . وقد ضمت هذه البعثة ، علاوة على جيراندو وجوفريه ، هالي ، أستاذ في الطب ، والأباتي سيكار ، وسيرفيه .

٣ – أول مفاهيم القرن التاسع عشر

ترسخت العرقية كعلم ، تدريجياً ، في القرن التاسع عشر ،

بينما كانت حركة موازية تبلغ مستقرها في ما نسميه العلوم الانسانية . ولكن مراحل كثيرة يمكن أن نميز فيها جميعا تطور الأفكار . فنشر الفلسفة « الكونتية » وتعميمها ابتداء من سنة ١٨٣٠ ، فتح عهداً جديداً ، لأن عتبة أخرى كشف عنها ، عندما انفتح مصراعا العصر الكبير : القرن التاسع عشر ، قرن تاريخ الأخلاق لا تاريخ تسلسل الأحداث زمنيا ، وأغلب الرأي أن هذا الانفتاح جاء في مطلع ١٨٠٠ ، لكنه لم يأخذ طريق نهايته إلا في مهب الحرب العالمية الأولى ؛ وهكذا يبدو منتصف القرن تقريبا (١٨٥٩ — ١٨٦٠) عتبة اشتهرت بتطابق عدد كبير من الحوادث العرقية ذات المغزى الهام . فسنة ١٨٥٩ ، هي السنة التي ألقى فيها بروكا [١] درسه الذي دشن فيه عهداً ، وهي أيضا ، السنة التي فيها اسس لازاروس واستنهال ، في ألمانيا ، مجلة علمية أصابت صدى مستحبا .

وأخذ درس الانسان علميا يتفرع . ليس لأن الباحثين يطلمون على هذا العلم من آفاق يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافا كبيراً ، ولا لأن وقت الاختصاص لم يكن قد حان ، بل لأن كل فرع من هذا البحث ، الواسع الأطراف والعميق الغور ، له توسعه الخاص ان لم يكن استقلاله الذاتي . وهكذا

---

(١) طبيب جراح وانترىولوجي فرنسي (١٨٢٤ - ١٨٨٠) مؤسس مدرسة الانتروبولوجيا . وقد درس الدماغ البشري ووظائف اللغة. (المترجم)

نستطيع ان نتبع طريقة التفكير العرقي من خلال مظاهره الأساسية ، كما جاءت في محاولات ما تزال تسيطر عليها هيبة استعادة بناء ماضي الانسان ، من مثل مقاربة بين مفارقات العقائد والمؤسسات للبنيات المجتمعية وبين دراسة السلالات ، أو من مثل تفكير موضوعي وعلمي يتناول المجتمعات في البلاد الأخرى .

١ – **بدايات ما قبل التاريخ**. – في أول القرن ، انقسم الموسوعيون بين مفهومين يتناولان علم الارض: فنظرية النبتونية[1] القائلة بخلق الارض من تفجرات ومن تحركات إنخسافية ؛ ومن جهة أخرى ، هناك نظرية الكوارث ، التي قدمها بوفون وكوفيه ، وهي تقول بأن مختلف الأنواع الحيوانية ، اثبت وجودها علم استقراء الآثار الدفينة ، وبما أنها كانت دون روابط في ما بينها ، فقد بعثرتها انقلابات وانهيارات جيولوجية ، وتدخّل الطوفان ، الذي يُعد نهاية وبدءاً للعالم ، جاء تتويجا لهذا البناء . وقد قاضي العالم الجيولوجي الانكليزي ، شارل لايل ، هذه المعتقدات ، فناقض نظرية الخلائق المتتابعة التي قال بها كوفيه ، وحشر الانسان في نطاق جيولوجي ، فوصف

---

(١) نسبة الى نبتون اله البحر ،ابن ساتورن واخو جوبيتير وبلوتون .في قصره في قعر البحر يحتجز الخيول البحرية التي تجر عربته على ظهر الامواج . ميثولوجيا رومانية ، أما اليونان فلهم « Poséidon » . (المترجم)

نماذج العناصر الشبيهة بالقرود غير المذنّبة ، هو من العصر الجيولوجي الثالث ، وبعد ذلك صناعات العصر الأول مما قبل التاريخ .

وفي مجرى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حاول باحثون كثيرون أن يجدوا في طبقات الأرض آثاراً لقِدم الانسان ، ومعالم من حضاراتـه الأولى : فكان الكسب أن أن النظرية أخلت مكانها للبحث الوثائقي . وكان غيتّار ، في القرن السابق ، قد لاحظ أية موارد يمكن أن يحصـل الباحث عليها ، من الحفريات ، وذلك استناداً الى الامكانيات التأريخية ، المتعلقة بموضوع البحث ، التي يستطيـع أن يقدمها عـلم أعمار طبقات القشرة الارضية . وهذا العلم فرع من علم الجيولوجيـا العام . وتراكم طبقات الارض السطحية أتاح المجال للتنقيب في كتاب الجيولوجيا الكبير ، حيث جاءت تستقر معالم الانسانية في نظام كامل . فما استُدرك من امكانيات الخطأ ، الخطأ المحدود حقاً ، ومن استثناءات سببتها تحركات لاحقة ، طبيعية ، مثل زحل الطبقة السطحية ، في مكان ما ، بفعل مجاري الردهة أو بتأثير تجاويف أرضية ، كالمقابر ، هذه كلهـا جاءت تأكيداً لصواب اللجوء الى هذا العلم الجديد لدرس القشرة الارضيـة . والمؤرخ الدانمركي فاديل ـ سيمونسين ، في كتابه « نظرة عامة على أقدم الحقبات وأهمها من التاريخ الوطني » (١٨١٣) ، ومن

جاء بعده أمثال : جورجينسين ، ووارسا ، والانكليزيين : بوكلند وماك اينيري ، والالمانيين : إسبير وثون سلوشين ، والفرنسي جوانيه ، والبلجيكي شمرلنغ ، وأمي بويه ، الذي كشف عن عظام في طبقات من الرواسب الوحلية على ضفاف الرين ، وسير ، وتورنال ، وكريستول ، جميع هؤلاء بدأوا يكدسون الوثائق ، التي ما تزال غير مستوفية شرحها وتفسيرها ، والتي عثر عليها في ظروف متفاوتة من وجهة الاطمئنان العلمي . وبعد سنة ١٨٣٠ طلع ، على هذا الفرع من الجيولوجيا ، إدوار لارته بفكرة البحث عن المغاور المعدنية ، بصورة مفضلة .

ولكن الاسم الكبير ، في هذا الحقل من مراقي العلم ، هو اسم بوشيه دي بيرت (١٧٨٨ — ١٨٦٣) ؛ مدير الجمارك في أبيفيل ، الذي كان يريد أن يجد دلائل تثبت وجود الانسان قبل الطوفان ، في طبقات تسمى آنئذ « طوفانية » . ومنذ سنة ١٨٢٣ ، بدأ في جمع فؤوس مفصلة ، وعظام حيوانات ، وأدوات حجرية . وفي سنة ١٨٤٦ ، نشر المجلد الأول من كتابه « أقدميات جنوب غرب ألمانية وقبل طوفانية » الذي ركز مواده بكتابه : « الصناعة البدائية أو الفنون في نشأتها » . وهذا الاخير أثار هياجاً ، وجمع عليه خصوماً تفرغوا لمناوأته ، وبينهم أمين أكاديميا العلوم الدائم . ولكن سنة ١٨٥٩ كانت حاسمة ، فقد زاره وفد علماء انكليز ، بينهم لايال الذي أكد

الصحة العلمية لهذه الاكتشافات التي قام بها هذا العالم . وفي سنة ١٨٦٤ نشر لايال استنتاجاته حول الموضوع ، فترجمت الى الفرنسية ، تحت عنوان : « قدم الانسان كما تثبته الجيولوجيا».
وبقيت حرب المناوئين قائمة حادة ، ولكن الاكتشافات تكاثرت . ففي سنة ١٨٥٣ تمثلت حضارة سكان منطقة البحيرات ، بالقرب من زوريخ ، بمساكن كانت قائمة على أعمدة في الماء ، وتتصل بأرض الضفاف . وفي تموز من سنة ١٨٥٦ ، اكتشف بعض العمال المشتغلين ، في مقلع من الرخام ، الانسان النياندرتالي[١] . أما هذا الاكتشاف فقد وقع موقعاً من الغرابة بدت معها صعوبة الاقتناع بوجود انسان سابق للانسان العاقل ، وأما فيركوو فقد ادعى أنه من غير الطبيعي ولا المألوف أن يبلغ جسم بشري تجاوزاً في حدوده قده يعرّضه للفناء . وفي هذه الفترة من الزمن ، نشر داروين تعليله وجود الانسان ، ذلك التعليل البعيد الاصداء ، المعروف بـ : « الكلام على اصول الفروع بالاختبار الطبيعي » حيث تناول مجدداً أفكار لامارك ١٨٥٩ ؛ وفي سنة ١٨٦١ اقترح ادوار لاريه ملحقاً مصوراً متسلسل الازمان .

وفي مقابل هذا التطور في الأحداث والأفكار ، طرحت مسألتان ، في القسم الثاني من القرن هما : تحقيق الفن الذي

---

١ ـ اسم مغارة في واد الى الشرق من مدينة دوسيلدورف ، حيث وجدت بقايا بشرية عملاقة تعود الى العصر الاول مما قبل التاريخ . (المترجم)

يتناول العصر الأول مما قبل التاريخ ، وقضيـــة الصوان من العصر الجيولوجي الثالث ، والثانية أحدثت كثيراً من الهزات الفكرية .

الوثيقة الأولى التي تشهد بوجود بعض الاهتمامات الجماليـة ، هي عند ناس ما قبل التاريخ . فقد وجدت منحوتة على عظم تمثل اثنين من إناث الأيل ، اكتشفها المحامي بروية سنة ١٨٣٤ ، في مغارة الشافـو. وابتداء من منتصف القرن ، جرت اعمـال تنقيب في البحث عن الآثار القديمة ، مثل ما قام به كريستي ولاريت وسواهما . فغابة الأيائل وغابة الغزلان تمثلان صور الحيوانات محفورة بدقة الإزميل ، وتؤكدان سيادةفنان ما قبل التاريخ على فنه . ولكن ظهور أهمية ذلك الفن على حقيقتهـا لم تظهر إلا بعد سنة ١٨٧٥ . ففي تلك السنة ، كانت ابنة اسبانية صغيرة ترافق أباها في نزهة الى مغارة ألتاميرا ، فـكان أن بدأ جدولاً بالأماكن الأثرية ، برؤية جديـدة ، هي رؤية الأولاد الصغار ، الخالين من كل إدراك مسبق ، تجلت بغتة بـ «صورة» رأتها الابنة الصغيرة في سقف المغارة : إنهـا حيوانات مصورة بالأسود والأحمر. فـكان هذا المشهد بـدءاً لحرب متناقضات ، بين أتباع هذا العلم الجديد وبين خصومهم ، حول حقيقة هـذه المصورات . وبعد زمن قليل ، بين ١٨٨٠ — ١٩٠٠ ، جرت تحقيقات مماثلة في فرنسا ، في كومباريل ، وفي نون دي غوم ،

وفي مغارة نيبو ، الخ . وفي سنة ١٨٩٤ ، تم اكتشاف تمثال صغير لأمرأة فينوسية الجمال ، ولكنها ليست بدينة ، فدشن عهداً لنوع آخر من صفات جمال الفن في ما قبل التاريخ . ولقد كانت التجميلات المحدثة على العظام والعاج ، والتماثيل الصغيرة ، والمصورات والمحفورات الممثلة انخناءة عظمتي الصدغين ، كلها تشهد لوضع جمالي طرح مسألة تعيين الأسباب والعوامل الفاعلة : أهو فن للفن أم تحقيقات وظيفية ؟ في ثبوت الحال الأخيرة ، ما هي الأهداف المعينة التي كانت هذه الأعمال الفنية تهدف إليها ؟ وفي طريق الجواب ، كانت هذه الجداول المتنامية من المواد . مناهج تعبير ، موضوعات ، وتقنيات . وقد أتبعت فيها المقارنات بالوثائق المستوردة ، لنعثر على صدى بدائية ما قبل التاريخ ، في حضن البدائية الثقافية العصرية .

وهناك مسألة أخرى أثارت الحماس في بعض النفوس ، في الربع الأخير من القرن ، هي : مسألة « سيلكس » العصر الجيولوجي الثالث ، أي صوانه المفصّل ، التي أثارت كثيراً من المتناقضات، والتي لم تكن كلها من مغايرات العنَت وتجاوزاته . فمن سنة ١٨٦٣ ، كان الأباتي بورجوا قد لفت الأنظار الى اكتشافات الصوان «المفصّل» ، مصقولة بالنار ، تعود بتاريخها الى الحقبة الثالثة من العصر الجيولوجي الثالث . ولكن بول وكابيتان أشارا الى وجود محفورات ، ليست سوى تقليد

سيلكس ما قبل التاريخ ، ظاهرة على السيلكس الذي انتجته كسارات صناعية . وبعد حين ، أثبت علماء آخرون كيف أن أعمالاً آلية حصلت بفعل نواميس طبيعية مثل الضغط الجليدي ، وأعمالاً أخرى مثل الحرائق تستطيع أن تغير في الأشكال تغيراً يفسر بأنه من صنع الانسان .

٢ – **أصول الجنس البشري الفيزيولوجية** . – لامارك ، رائد داهية سجلت أفكاره سبقاً كبيراً جعله سابقاً عصره . لقد كان فيه كل داروين ، هكذا بدأ الباحثون في هذه النواحي العلمية يقولون فيه . ومع كل هذا ، لم يكن له أي تأثير عملي على معاصريه ، إذ كانت أفكاره منسية أو محتقرة ، في أوائل القرن التاسع عشر ؛ فجاء كوفيه ، الرجل العظيم ، وجاءت معه عقيدة التمرس بعادات المجتمع وميراثه المعنوي ، فسهل هذا الجهر بجديده طريقه الى الشهرة . أما المخاصمة الكبرى فقد دارت حول وحـــدة مصدر الانسان أو تعدد مصادره : أو بتعبير آخر ، وحدة المتحدر أو تعدد المتحدرات . وكوفيــه متمذهب بالوحـــدة : فيحدر مبدأ النوع بقوله (أفراد نموهم خصب) ، ويضع الخطوط الكبرى لتصنيف السلالات فهي : قوقازية ، ومنغولية ، وسوداء ؛ ولكن فائدة هذه الأبحاث تحولت نحو خدمة علم الحيوان . وأما في الخارج ، فإن ج. س. بريشار ، في كتابه «أبحاث في التاريخ الفيزيائي للجنس البشري» ،

ثم و. لورنس ، كانا أيضاً متمذهبين بوحدة المتحدر . ومن أبرز معارضي هذا المذهب : ج. ج. فيراي ، وبوري دي سان ـ فانسان ، و أ. ديمولان .

لقد كانت التصنيفات السلالية المقترحة ترتكز على ميزات أنتروبولوجية : اقتضاء علمي ولو في حـــده الأدنى ، ولكن العصور السابقة لم تفهمها ؛ ومع ذلك فان هذه الميزات كانت ، في الغالب ، سيئة الاختيار . وهكذا كان ج. ج. فيراي يعتقد أنه في استطاعته أن يعتمد ، كفارق أساسي بين الصواب والخطأ في النظرة السلالية ، قيمة الزاوية الوجيهية ، فمايز ، على هذا الأساس ، نوعين : الأول منهما ذو الزاوية المنفرجة ، المشتمل على البيض ، والصفر ، ونحاسيي اميركا ، والثاني ذو الزاوية المطبقة الجامع السلالات ذات اللون القاتم ، وهي تشتمل على ست سلالات وعلى كثير من النوعيات ، كما جاء سنة ١٨٠١ في كتاب « التاريخ الطبيعي للجنس البشري ». أما أ. دوميريل ، و أ. ديمولان ، س. ج. مورتون ، فيقتربون من التقسيم المعترف به اليوم . وعلى الرغم من هذا ، فإن الأحكام المسبقة ما تزال تتمتع بوجود غريب دائم .

وكانت الحاجة تدعو الى درس هذه الأوهام المفرطة في التشدد ضد السود: فكان البيض يأنفون من الاختلاط بهم، تضاف ،الى هذه الأوهام الآسرة افكار دينية قديمة مأخوذة عـن الكتاب

المقدس في تفسير خاطىء، لتكون اضافتها عامـــلاً على زيادة التعقيد في هذه الأمور . وفي الواقع ، لم يكن في هذه التحقيقات ذات الوجه الصوابي الواحد، نزوع الى العمل التحقيقي ، منــذ القرون الوسطى ؛ فنوعية الاصل الأسود ، التي استحال ردها الى الأصول الأخرى البشرية ، كانت في أساسها ، نوعاً من سوء التصرف الضميري ، فاستحال معها تصحيح النظرة الى العبوذية. ولما كان استعباد الانسان جريمة في تحديده ، حــتى ولو تقنّـع بمختلف الاجتهادات العقلية ، فان امكانية اظهار العبيد، بواسطة بعض التأكيدات العلمية ، انهم بشر دون المستوى الانساني ، وذلك بطبيعة وجودهم ذاته ، تبدو الوسيلة الوحيدة لتبسيط الأمور . وهـكذا نـكون كمن أمّن عملاً اقتصادياً بأسلوب لاهوتي، أو كمن خالط بين العلمي والارادي . وقد كتب كوفيه مؤلفه الشهير ، الذي تكلم فيه على فينيس الهوتانتو ، وهو « يوميات معرض العلوم الطبيعية » ، سنة ١٨١٧ ، واصفاً بشكل معين ، مميّزات هذا النموذج ، المصنف في العبيد ، ويقـــيم موازنات متعددة بين نموذجه وبين القرود . واستمرت هـــذه الحالة من التفكير حتى منتصف القرن . وهكذا ، يجب أن نفصل السود عن سائر البشر كأنهم لم يذكروا في نسل نوح على حد ما جاء في سفر التكوين . وهذا الوجوب أوجبه الامـــيركيان : نوت وغليدون في كتابيهما : « نماذج من القردة » ١٨٥٤ ، و«السلالات

الأصيلة » .

غير أن صحة محاولات التصنيف هذه ، القائمة على المميزات السلالية ، تتأثر بدقة المقاييس المعتمدة ، في جانب عظيم منها . وهذه المقاييس تركزت على عنصر الامتياز ، المعتبر أنه الأهم . الجمجمة ، أو بتعبير آخر أكثر جدة ، الرأس العظمي ، يعني الجوّف العظمي ومشتبك الفكين . وتعيين طبيعة السلالة ، على ظاهر الجمجمة ، بواسطة معالم الالتقاء العظمي المعيّن، وكذلك تعديل طرق القياس ووسائلها ، كبركار السّماكة والشريط الذي استعمله بارشاب ، سنة ١٨٣٦ ،أتاحت لوصف القياسات المميّزة وصفاً علمياً أن يصبح معتمداً . ولكن هذه القياسات أخذت أنواعها تتحسن ، كما أخذ عددها يزداد يوماً بعد يوم . فكانت تعطي أعداداً مطلقة . ووضع اثنين من هذه الأعداد ، في علاقة بينها ، كان يتيح تفسير نسبة ذات معنى افضل .

وقد توصل الاسوجي أندير ريتزيوس ، سنة ١٨٤٢ ، الى إحصاء مختلف كل الخوارج [١] الممكن الحصول عليهـــا لشرح النّسب المميّزة التي منها الدليل الرأسي : أي النسبة بين أكبر عرض للجمجمة وأكبر طول لها . ولكن ريتزيوس احتاج الى مجموعة التعابير الجديدة ليصف مظاهر الجمجمة الموضوعة موضع التحقيق . وهو ، بحق ، واضع التعبيرين : جماجم مستطيلة ،

---

١ ـ يعني نتائج قسمة. (المترجم)

وجماجم مستديرة ، ولم تلبث أبحاث المهتمين بهذا العلم أن وضعت تعابير أخرى . وفي حين من الأحيان ، اعتقد بعض الباحثين ، ممن وضعوا اعتبار الامكانات فوق الأخذ بالمسلك المعروف، أن نواتىء الجمجمة تعبّر عن هندسة التكوين الداخلي للدماغ ، وبالتالي تفسح المجال للاقتراب مما ينمّ عن النفسية : فدرس أشكال الجمجمة خارجياً كان يترجم أعمق الامكانات والاستعدادات الكائنة في شخص ما .

وعلى الرغم من كثير المقاومات ، فان هذا الخطأ المزدوج : خطأ الاعتقاد بكلية القدرة الكائنة في شكل الجمجمة ،والاعتقاد بالدليل الرأسي القائم في الميزات الفارقة ، هاجمه المحافظون بشدة . والجدير بالملاحظة أن العلاقات المتبادلة المشار إليها كانت وهماً خادعاً . وقد رفض علماء المفارقات في البنيات الاجتماعية أن ينسلوا من اختصاصهم خلاصات من داخل نظام علم النفس ؛ ولكن « مدرسة الفراسة » [1] كانت قد جمعت وثائق كثيرة العدد ، وراحت تعمل لتقدم أساليب التدقيق في درس أبعاد هذا العلم . ومن جهة أخرى ، أصبح مفهوماً أن شكل الجمجمة كان بعيداً عن أن يكفي لتحديد ميزات نموذج عرقي ، وأن التعديلات التي أدخلت على الدليل الرأسي في قلب

(١) أوجدها طبيب الماني (١٧١٨ - ١٧٨٣) اسمه غال . وهو علم لم يبق منه غير اثر تاريخي . (المترجم)

جماعة واحدة ، كان تنتهي إلى ألا تنسب ، إلى هذا الاستنتاج ، غير قيمة محدودة : إذ ان شكل الرأس لم يتجاوز كونه ميزة انتروبولوجيــــة ، بين كثير من الميزات الأخرى ، وليس له ، قطعاً ، أي دور ممتاز .

٣ – درس المجتمعات الخارجية وانعكاسها على الانسان المجتمعي . – لقد أشرنا ، في ما تقدم ، إلى المكانة الهامة التي تحتلها الحركة الإيديولوجية في تاريخ الفكر العلمي. ولكن هناك مؤلفات أخرى كانت تثبت وجودها العلمي خارج هذه العائلة الروحية . ولنذكر أولاً ، بسرعة ، سان سيمون في تجربتــه الفضولية ، الذائعة الشهرة ، « بحث في علم الإنسان» ، ١٨١٣ ، وهي تجربة ذات مقاصد جريئة : إذ كانت ترمي إلى بناء علم حقيقي قائم على دراسة الإنسان وثقافاته . وهكذا تبـــدو مدرسة دي ليبلي ، المسماة في العلم الاجتماعي ، أنهـــا أقرب انتساباً إلى السوسيولوجيا ، ولكن أساليبها المحسوســة كانت ســـارية التطبيق على المجتمعات المستوردة . أما ما كان يحمله الرحالة ، منذ أوائل هذا القرن ، من الوثائق ، بينها وثيقـــة ثمينة تتناول الشعوب الخارجية ؛ خاصـــة الأميركان الهنود والأسيويين . والجدير بالذكر أن عدداً من هؤلاء الرحالــين توجهوا في بعثات علمية تترأسها منظمات رسمية أو جمعيــات علمية ، وهذا حدث جديد بحد ذاته .

وينصب الجهد ، اليوم ، بصورة جديدة على تجريد الوقائع المستوردة من كل حكم مسبق . ففي سنة ١٨١٣ ، درس ج.س. بريشار ، الرائد الثقة ، في أبحاثه المتناولة العرقيــة النفسية ، ذهنيات السلالات واستعداداتها النامة عن روحيتها ؛ فوضع الانسان في علاقته مع تأثير البيئة الطبيعية عليه . وجاء ريتير فنشر دراسة منهجية موسعة ، حيث غدا التأثير المدرسي العنصر الأساسي في تفرق الجماعات وتوزّعها على سطح الأرض . ففي سنة ١٨٣٩ ، ولد المجتمع العرقي في باريس ، على قاعــدة تبقى سلالية تاريخية قبل كل اعتبار آخر . والذي ركزه على هذه القاعدة فكان المؤسس ، هو وليم ادوار ، العالم الطبيعي الفرنسي إذ استطاع وضع واحدة من أوليات مجموعات الأسئلة التي تتناول الاوصاف العرقية ، في شكل تعليمات عامة للرحالة . أمــــا الجمعية العرقية في لندن ، فكان ميلادها سنة ١٨٤٢ . وأما في باريس ، فقد حوّل المتحف الطبيعي فيها منبر تعليم التشريح الى منبر مماثل في تاريخ الانسان الطبيعي ، سنه ١٨٣٢ . وهذا التحويل جاء بمثابة تطور جامع التعابير الخاصة بالعرقية ، من خلال التغير في التركيز الوصفي .

وقد استطاع بعض البحّاثة الصابرين ، والمراقبون الأذكياء الذين جابهتهم حقائق المجتمعات ، في البلاد الحارة والاستوائية ، أن يجمعوا مؤلفات تعتبر حقاً ، كتبــــاً في الوصف العرقي من

حيث الطريقة ومن حيث الهدف . ونحن لا نتعرض لتحديد نقاط الاتصال الاساسية ؛ بل ندلّ على بعض من عُنوا بذلك كالألماني كلابروخ الذي نشر ، في ما بين ١٨١٢ – ١٨١٤ ، « علاقاته » التي تناولت القوقاز وجورجيا ، والتي تعتبر مؤلفاً من أبكار ما جمع في شكل منهجي عرقي . وكذلك فعل السويسري لويس بوركهارد ، الذي انتدبته الجمعية الافريقية ، إذ جمع من أسفاره الى سوريا ، وليبيا ، والجزيرة العربية ، بين ١٨١٩ – ١٨٢٩ ، كتاباً عما رأى وخبر . وقد كان استعمار الجزائر مثيراً الى انجاز عدد كبير من الأشغال ذات الطابع الغريب . أما الفلندي كاسترين فقد عمل في بلاد الأوستياك[1] والساموياد[2] . ولكن أميركا القارة الجديدة جذبت نحوها عدداً كبيراً من الرحالة ؛ فاذا بويلد – نيويد ، وسبيكس ، وماتيوس يؤلفون كتباً عن رحلاتهم ابتداء من ١٨٢٤ ؛ بينها كتاب حول البرازيل جاء تسجيلاً لواقع سفر طويل في الأمازون بين ١٨١٧ و ١٨٢٠ ؛ وكتابان هامان آخران تناولا أميركا الشمالية أحدهما سنة ١٨٣٨ ، فيلادلفيا ، مؤلفه ماك كيني ، والثاني كتاب

---

(١) شعب في شمال غرب روسيا الاوروبية ، متاخم فنلندا ، اقزام ، سمر والوجوه مغولية . (المترجم)

(٢) شعب مغولي يسكن المناطق الواقعة على المجرى السفلي لنهر الأوب ، في شبه جزيرة تاييمير ، يعنون بتربية بقر الوحش والأيائل . (المترجم)

تعليلي طويل موسع ، جاء في ثلاثة مجلدات لمؤلفه شولكرافت، نشر سنة ١٨٥١ ، اسمه: «المعلومات التاريخية والاحصائية » .
ولكن هناك مؤلفين يستحقان تنويهاً خاصاً بهما ، هما الكسندر دي هومبولد وألسيد دوربيني إذ أن لهما نقاطاً مشتركة مثيرة حب الاطلاع ، وكلاهما عالم بالطبيعة ، أرسلا في بعثة الى اميركا الوسطى والجنوبية ، فلم يتأخرا في أن يتجاوزا نطاق المهمة التي عهد بها إليهما ضمن اختصاصهما ، وراحا يدرسان الإنسان . وعلى الإجمال ، هما مفكران منفتحان تقدما زمانهما تقدماً يدعو إلى الإعجاب . فهومبولد ، في كتابيه : « تجربة سياسية على مملكة اسبانيا الجديدة » ، سنة ١٨١١ ، و « نظرات من الكورديللير ومن أنصاب شعوب اميركا الأصلاء» ، سنة ١٨١٦، وهذا الأخير ذو عنوان خادع تقريباً ، لأن مضمونه يتجاوز كثيراً الصعيد الأثري ، ففيه شعور جديد ، يومئذ ، منبه الى هذه الضرورة القاضية بتجاوز كل الشروط الذهنية المقيسة ، وهي ضرورة يتطلبها كل اقتراب من حضارة تختلف عن حضارة بلدنا .

ودوربيني يتبع الخطط نفسه ، ويقدم مفهوماً مماثلاً ، واضح الدلائل ، فيه نباهة الباحث الواصف العرقية ، يواجه بها موضوعه كأنه في بحث تحليلي وتعليلي معاً ، يعني أنه متابع وصف العناصر الثقافية في مختلف حقول الحياة المجتمعية .وهي

متابعة فيها مقارنة بين المعطيات تعين على استخلاص النتائج ، في شيء من السرعة غالباً ، ولكنها مُمنهجة دائماً . وهكذا عُرض الانسان الأميركي باعتبار علاقاته الفيزيولوجية والخلقية في باريس سنة ١٨٣٩ .

ولكن العرقية تقدمت دائماً في ازدواجية بحث : النــاس كأرض تُدرس ، والعلماء في مكتب يدرس . وفي مقابل هؤلاء الرحالة ، الذين كانوا يعرفون كيف يواجهون الأخطار الحقيقية ، مفكرون كانوا يكمّلون طريقهم كـ « فلاسفة » ، ولكن مع فارق أساسي : انهم كانوا يريدون أنفسهم رجال علم ، فبدأوا يضعون القواعد لنظاميات خاصة . من هؤلاء يجب أن نذكر فرانسوا بوب ، وغليوم دي هومبولد ، ورينان الذين خلقوا حقاً ، الألسنية ؛ فرينان نشر ، سنة ١٨٥٥ ، كتابه « تاريخ اللغات السامية العام » ، وجرب نفسه في ايجاد « أصل اللغات » ، سنة ١٨٥٨ . وفي ألمانيا ، أسس فريدريك كروزير « المدرسة الرمزية » سنة ١٨١٠ ، التي دشنت مبتدأ درس الميثولوجيا درساً عقلياً ، في كتابه حول الرمزية والميثولوجيا ١٨١٠ — ١٨١٢ .

ولكن المؤلف الأهم هو كلم ، الذي دشن ، عام ١٨٧٥ ، البحث العرقي كما هو في حقيقته ، دون ان يكون للعرقية ارض معينة . وقد أسهم معه في هـذا مينيرس . فغوستاف كلم موسوعي ألماني ، عرف بطريقته الالمانية الدقيقة والمرهقة نوعاً ما ، كيف

ينطلق في عمل من البحث الواسع خالطه الكشف والتصنيف . وقد استخلص من علاقات رحلاته نوعية من الوثائق في وصف العرقية دقيقة الضبط في متناولاتها ، فـكان له منها ما أعانـه على أن يجرب إرساء الكلام في نظرية مهذبة الصياغـة . وعلى الرغم من أن هـذه التجربة التعليلية كانت عملا سابقاً أوانه ، لأنها مرتبطة بتحاليل غير كافية ، فقد نشرت ، سنة ١٨٤٣ ، بعنوان معبر عن سعة مراميها ، وكأول مجموعة في الوصف العرقي ، لا بد من الإشارة الى قيمتها ، وإلى الإقرار بأنها كانت تجربة موفقة في إعادة بناء « تاريخ الانسانية الثقافي العام » . وفي ما هو خارج عن الإنماء الخـاص بهذا الشعب أو الحصيلة الثقافية ، يقترح كلم تصانيف ، وتحليل فئات ، وصياغـة حدود تعبيرية ، يمكن أن تعتمد بعده ، والتي منها ما هو مفيد دائماً . ويصل الى وضوح من الرؤية فيجد ان المجتمعـات البشرية تنقسم ، باعتبار تنظيماتها ، الى نموذجين : أحدهما فاعل يحمل جديداً ويسجل مدارج الارتقاء ، والآخر مفعول خاضع للتقاليد . وفي الأساس ، هـذا هو التضاد ، الذي نستطيـع ملاحظته بين طريقة تكديس وطريقة إعادة ، وبين التحضير والأخذ بالتقليد الموروث القديم . ولسوء الحظ ، رأى كلم أن هذه القسمة غير الشرعية ذات اساس طبيعي ، يعني اساس سلالي وليس ثقافياً ، فينتقل مختاراً من الصعيد الوصفي الى

صعيد استخلاص القواعد والأصول ، معتمداً تقديم النموذجين في أن أحدهما يكمل الثاني : الجماعات « المسيطرة » والجماعات «المسيطَر عليها». وهكذا نقترب من غوبينو وفاشير دي لابوج. ولكن كلم يستطيـــع ، من جهة أخرى ، أن يفرض اعتباره أول نشوئي قال بالانتساب الى الاب أو الى الأم : فهو مقتنع بالسير التقدمي للتاريخ الثقافي ، ويحاول أن يسجل مراحل نموه ، وهو يمايز بين ثلاثة أطوار أساسيـــة : ١) طور الحالة الوحشية ، طوائف من الصيادين وجماعات بدائية ، ٢) طور خدمة الذات او « التدجين » ، ٣) طور الحرية المتميز ، على حد قوله ، بفقدان أولية الكهان وبروز البنيات الحديثة . أما زامهيت فيعرض لنا مجتمعات قبلية مؤلفة من فلاحين ومربي ماشية توصلوا الى بناء أنظمة قضائية وسياسية متآلفة يسيطر عليها السحر والدين .

٣

الحيوان «الانسان» والبحث عن الاصول

في القسم الثاني من القرن التاسع عشر ، بدأ الانسان يجرد درس الانسان من كل فكرة مسبقة ، ولأول مرة ، جعل نفسه هو موضوع البحث . ولا بد من أن تصبح أبعاده الصحيحة معروفة في كل معانيها : بعده المنطقي ، المنظور إليه من خلال اندماجية الحيوان « الانسان » في الفصائل الحيوانية ، على حد المثل الأرسطي ، وبعده الزمني ، على ضوء البرهان الكاشف والحجة المقنعة ، منذ أقدم عصور هذا النوع ، وبُعده المكاني ، المتناول في مقارنات التماثل بين المجتمعات «الدخيلة» والاعتراف بقيمها الثقافية اعترافاً ما يزال محفوفاً بالهيبة والتردد .

١ – انتشار الانتروبولوجيا الفيزيائية

في التاسع عشر من أيار ١٨٥٩ عقدت الجمعية الانتروبولوجية

جلستها الأولى ، تحت اشراف ممثل السلطـــة ، لأن الحكم الامبراطوري كان يساوره القلق مما ينتج عن مثل هذا الاجتماع في الشؤون السياسية ، التي تنقل ، ولو بشكل طارىء، افكاراً جديدة تتناول تطور الانسان . ولقد كان برنامج الجمعية يغطي حقل العرقية كله ، ولكن العمل التطبيقي لم يتجـاوز حدود درس المفارقات المعروفة كأساس للبنيات المجتمعية فيزيولوجياً .

١ ـ عمل بروكا . ـ لم يكن عمل بول بروكا الانتروبولوجي سوى حصيلة نشاطه طبيباً جراحاً ، ولكنه يتناول الأساس . وكان ، عدا كونه طبيباً ، عالماً ومنظماً ، لذلك جاء نتاجـه علمياً صرفاً ومزدوج الصفة : فهو عملي ونهجي . وقـد بذل جهداً عظيماً في بحث اختلاف الفصائل في الإخصاب ، فدرس القرائن المميزة في السود . وليس بين الاشغـال الكثيرة في الانتروبولوجيا الفيزيائية ، حتى زمانه ، ما يعادل أبحاثه في تعقد العظام وتخالفها ، وفي درس اشـكال الأدمغة ، فقدتفردت بعدد كبير من الآخذين بصحتها . وهو ، من جهـة أخرى ، واضع تعاليل في العرقية ، حيث يظهر ويؤكد في كتابـــه : « امثولة تدشينية » أن كانت له رؤية واضحة في منهج « تاريخ الانسان الطبيعي » . وقد كانت حصيلته على صعيد المنهجـة أكبر أهمية منها في أي مكان آخر ، لأنه أحـكم وضع أكثر أدوات القياس وتقنينات تحديد القيم ، نذكر منها : صفيحـة

لقياس العظام ، وبركاراً ، ومقياس الزوايا ، ومقيــاس المسطحات ، ومصور الجمجمة ، ومقياس تمثيل الأحجـام ، وغيرها ، مما وضع من أجله قوانين حماية دقيقة ، معينـاً ، بكثير من الضبط ، مختلف النقاط القائمة على معـالم الحدود ، وراسما طرقاً لتنفيذ عمليات كياوية يدوية . وهو الذي ادرك لأول مرة كيف تبنى سلالم تمثيل تفتق النواة . ويجمل هذه الأشغال المنهجية كان من ثماره كتابات : « تعليمات عامـة في الابحاث وملاحظات انتروبولوجية » (١٨٥٦) و « تعليمات في وصف الجمجمة وقياسها » (١٨٧٥) .

ويعد بروكا منظماً مدهشاً في البحث . وقد علم ، فترك من علم ، كثيراً من رسل تعليمه وأساليب بحثه . ولـكي يمثل علمه عملياً ،أوجد مختبر الانتروبولوجيا في المدرسة التطبيقية للدروس العليا ، والذي ما يزال يعمل مخلداً ذكرى مؤسسه ، وقد تفرد بآثار ثلاثة أخرى ، ما برحت تنطق بفضله هي : مؤسسة متحفية تحمل اسمه « متحف بروكا » وهو عبارة عن مجموعة وثائقية عظيمة تتألف من جماجم وعظام طويلة ، ومجلة عرفت بـ « مجلة الانتروبولوجيـــا » أصدرها في سنة ١٨٧٢ ، و « مدرسة الانتروبولوجيا »التي فتحت ابوابها في سنة ١٨٧٥ .

٢ـ احصائيات في التشريح العظمي ، وأدلة . — بعد بروكا ، قام علماء الانتروبولوجيا بإكمال تعيين مواقع العظام وأدلة

القاعدة ، وراحوا يتابعون أعمالهم مستندين الى وثائق كانت تزداد عدداً ، يوماً بعد يوم ، كما كانت تتركز في مواقعها احسن فأحسن . وجاء توبينار ، فدرس استطالة الفكين الى الامام ، سنة ١٨٦٢ ، وتلاه ريفيه ، ١٩٠٩ . وقد ُعـــني بالقياسات الجمجمية عدد كبير من المؤلفين ؛ ففـــي سنة ١٨٥٩ نشر دي بير كتابه « الجمجمة المميزة »، وحتى نهاية القرن ظهر على التوالي عدد من الاحصائيات : « الجمجمة البريطانية » لدافيس وتورمان ، و « الجمجمة السويسرية » لهيس وروتيميار ،الخ أما الكتاب الأخلد في هذا النوع من التأليف ، فهو لكاتريفاج وهامي ، وظهر سنة ١٨٨٢ ، تحت اسم « الجمجمة العرقية » . وعند التعيين الأفضل لميزات النماذج السلالية ، يجب الانتبـاه الى مختلف أجزاء الهيكل العظمي ، اي العظام الطويلة . وعلى الرغم من السلطة المعطاة لمؤلفات بروكا ، فان كل الباحثين لم يترسموا ُطرُقه بالضبط ، لأن التقنية مستمرة في الارتقـاء . ولكن الحاجة ماسة الى ان يستطيع كل العلماء التكلم بلغـــة واحدة . وفي هذا الاتجاه ُبذلت جهود كثيرة ، ولكنها كلها لم توصل الى صيغة عن اتفاق دولي يضمن تعميم الطرق المهيأة علمياً وتوحيد الأدلة . من هذه الجهود المبذولة : في لندن ، « مفكرات ولقطات » ، عن المؤسسة الملكية الانتروبولوجية ، سنة ١٨٧٤، في فرانكفورت، محاولة توحيد قام بها المجلس الوطني سنة ١٨٨٢،

في موناكو ، اتفاق مبدئي توصّل اليـــه المؤتمر الدولي للانتروبولوجيا والأثريات لما قبل التاريخ ، سنة ١٩٠٦ . وفي جنيف ، مقررات المؤتمر الدولي للانتروبولوجيا والأثريات لما قبل التاريخ ، سنة ١٩١٢ . أما لجنة تنميط التقنية الانتروبولوجية فقد خلقت في مدينة بال ، سنة ١٩٣٤ . ومع هذا كله ، تبقى المسألة حتى اليوم غير محلولة تماماً .

٣ ـ **الآفاق الجديدة** . ـ من الممكن ان نعيّن المواقـــع في الأبحاث الأقرب عهداً الينا ، مستندين الى ما تقدم ، وكأننـا نعيّنها استناداً الى علم الامراض ، او الى الامراض المكوّنة . ولكن خارج تطبيق الإحصاء الأنتروبولوجي ، الذي دشنـه كيتيليه (١٧٩٦ ــ ١٨٧٤) ، وهو بلجيكي ذو ذهن قوي متفرّد ، ويعتبر مُدخِـــل القياس في المجتمعية والإحصاء الانتروبومتري ، في نظامه العلمي ، وقد تبعه في هذا ، غالتون ثم بيرسون الذي أوجد مجلة « إحصاء الأحياء » ، في كامبريدج ، نجد أن الأعمال التي مهدت لهذه السبل الجديدة لا يعود تاريخها الى أبعد من أواخر القرن التاسع عشر . وهـــؤلاء هم الذين بخروجهم من صعيد القياسات العظمية ، تناولوا عناصر غير عظمية ، هي « الأجزاء الرخوة » : كالعضلات ، والغدد ، والأعضاء . وفي مستهل القرن العشرين ، انفتح المجال لطرق الأبحـــاث المتناولة « دراسة أشكال الاحياء » ، بصورة فردية ، فـكان

ما أسموه « عناصر مكوّنة ». نذكر من أصحاب هذه الطرق: ل. مانوفريا الذي جاء الأول في تصنيف الافراد بالنسبة الى مختلف أجزاء الجسم ، وفي سنة ١٩١٤ ، طلع سيغو وماك أولـّيف بتمايز النماذج التأسيسية الكلاسيكية الاربعة : العضلي والتنفسي ، والهضمي ، والدماغي . وأخيراً جاء دور آلية الوراثة ، التي أخذت الأضواء تُلقى عليها تباعاً : اولاً على علم النبات ، ثم على علم الحيوان . وكان أول من ألقى ضوءاً ، نودين ، ولكن شهرته قليلة بالنسبة الى تقدمه الزمني ، سنة ١٨٦٣ ، ثم جاء مانديل ، سنة ١٨٦٥ . وتلاهما هـ. دي فري سنة ١٩٠٠ ، مُدخلاً مبدأ النشوء غير المنتظر أو التعديل المفاجىء في الوراثة . وبعده ، سنة ١٩١٣ ، جاء جوهانسين فحدد العنصر الفاعل في الوراثة . وعلى هذا الاساس ، قام علم الوراثة ، الذي هذبه مورغان فجعله علماً أسماه « الوراثية » .

علمنا ، في ما تقدم ، أن أصل الانتروبولوجيا ، عثر عليه في الابحاث الجمالية عند فناني القرون الوسطى ، فيما كانوا يصوغون قواعد العمل الفني . وانها تقنية نفعية أخرى ، تلك التي جاءت تدفع عجلة الرقي الانتروبولوجي: فيصبح تطبيقه عند رجال الأمن وسيلة إلى معرفة المجرمين . وكان أبرع من ركز قواعد هذا العلم في فرنسا أ. بيرتيون ، وسرعان ما تعممت . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أظهرت أبحاث

مختلفة أن أمر هذه السمات الفارقة كان على عكس ما عقدت عليه الآمال ، إذ وجب أن نرفض اعتبار « الدليل الرأسي » الضابط الأكبر المعين على تصنيف الجماعات السلالية . فقد أشار مانوفريا ، وبعده بيتار ، إلى التغيرات الممكنة ، في هذا الدليل ، داخل الجماعات الموحدة الشكل ، ووفقاً للمعتمَدات المدرسية . ولكن التقنيات ما انفكت تزداد دقة وتثبتاً في اجراءاتها ، سواء أكان الامر يقتضي درس العظام الطويلة من مثل عظمي الفخذ والجنب ، او يقتضي درس الجمجمة كما فعل توبينار ثم ريفيه في قياسهما استطالة الفكين الى الأمام .

أخيراً ، ارتسم بالخطوط الكبرى وصف امكانات جديدة من التماثل بين النماذج السلالية واكتشاف الجماعات الدموية . وقد تتابعت المراحل الاساسية كما يلي : في سنة ١٨٩٥ ، جاء بورديه فبرهن ان المصل المأخوذ من فرد ، يستطيع ان يكدّس الكريات الحمراء في فرد ينتمي الى نوع آخر . وابتداء من السنة ١٩٠٠ ، أكد لاندستينير أن التجميع يمكن ان يتدخل على فردين من النوع الواحد . والتماثل بين الفئات الرئيسية A و B و AB و O »حصل بين ١٩٠٧ و ١٩١٠ على أيدي : جوسكي وموس ، ودنجرن ، وهيرزفيلد . ثم عُرفت فئات دون الرئيسية «A و A_1 و A_2 » ، ومصل الاغلوتينين ، M و N ، لم يُكتشف إلا في سنة ١٩٣٩ . وفي سالونيك ، اثناء الحرب

العالمية الأولى ، بينما كان ل. و هـ. هيرزفيلد يشتغلان في دارسة بنيات مجتمعية مختلفة كانت في حوزتهما ، اكتشفا أن النسب بين جماعات مختلفة تتغير بتغير النماذج البنيوية ، وهكذا اتضح أن مبدأ دموية الجماعة يمكن أن يكون له معنى سلالي .

٢ — من السلالية الى العنصرية

أبدت نظريات النازية الهتلرية تجاه التعاليم العرقية انتباهاً واسعاً ؛ ولكن الريخ الثالث لم يخترع شيئاً . كل ما كان من أمره أن الدعاة المروجين له تناولوا في شيء من المبالغة ، أفكار اثنين من الأدمغة المتفردة ، اللذين كانا يستحقان أن تترجم أفكارهما بصورة أفضل ، وهما غوبينو وفاشيردي لابوج. أما تقدمية الانتروبولوجيا الفيزيائية ، والسلالية ، فقد ساعدت على تقوية هذه التجاوزات . فكأننا أمام عرض ثان للمزايدات وللمغالاة في التقدير ، يشبه ما شهدناه في الكلام على الدليل الجمجمي ، الذي اعتبر ، في بعض العهود ، أنه القياس الأمثل ، وعلى الفراسة الجمجمية التي مورست ابتداء من الأخذ في درس السلالة درساً علمياً . وعندما اصبحت السلالية علماً ، عرفت هي أيضاً مبالغات في اعتمادها .

لقد وضعنا في نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر صورة فريدة للكونت دي غوبينو الرحالة المستشرق ، صاحب

« تجربة في اللامساواة بين السلالات البشرية » التي نشرها سنة ١٨٥٤ . وهذا المؤلف ، جاء بعد كثيرين تقدموه في مجال البحث عن مخطط هيكلي يمكن أن يُدخل تتابعاً منطقياً في مختلف التطورات التاريخية ، التي يبدو أنها لا تنتهي ، وأنها تميل الى النزول لا الارتقاء ؛ وقد ظن أنه أدخل هذا العنصر النظامي بادخاله السلالة . ومما ساعد على تبين المركب التاريخي، بشيء من السهولة ، إدخال عامل الإخضاع للتسلسل عليه : فالسلالة الآرية ، التي كانت بمثابة خميرة للأصل البشري ، جاءت من آسيا الوسطى ، لتكون في أساس كل تقدم؛ ولذلك يعتبر تزاوجها مع السلالات الأخرى سبباً في سقوط الامبراطوريات ، لما نتج عن ذلك التزاوج من انحلال في كيانات الارستقراطيات الآرية . فكان من واجب الشعوب أن تحمي نقاوتها السلالية . وهكذا يكون غوبينو قد احتجز كل الاستعلائية .

ولكن الذي جعل هذه الأفكار متناولاً شعبياً ، في السنوات الأخيرة من القرن ، هو فاشير دي لابوج . ولم تكن التعاليم النازية غير تضخيم لهذه الأفكار ، واستخلاص ما يمكن من النتائج ؛ فكان هتلر يقول : أن الفرنسيين يجهلون رجلهم العظيم ، فاشير دي لابوج . وقد قامت النظريات السلالية على كتابين « المنتخبات الاجتماعية » ، سنة ١٨٩٥ ، و « الآرية

ودورها الاجتماعي » ، ١٨٩٩ . والمبدأ الأساسي المركزي كان في التفوق الفيزيائي ، والعقلي ، والخلقي الذي يملكه نموذج سلالي معين ، بينما مبدأ شمال اوروبا يتصف بالتفرق وطول القامة . وأصحاب الجماجم المستطيلة من الرجال الشقر الكبار، كانوا مدعوين دعوة طبيعية ليسودوا العالم؛ وهذه كانت رسالة: والرسالة واجب أكثر منها حق . وكان لهذه النظريات أصداء في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحدة ، فأحدثت أثراً حتى في السياسة : فنِسَب المهاجرة المئوية ، المقررة في الولايات المتحدة ، هي ، بصورة لا جدال فيها ، قائمة على أسس سلالية (جونسون ، تشرين الاول ١٩٢٤) . ولكن علماء النظريات النازية هم الذين نغموا هذه المعزوفة ، التي صارت اليد المحركة ، والعنصر المدير سياسة النفَس الطويل الألمانية ؛ فكتاب هتلر ، « كفاحي » أول كتاب قتالي قائم على التعاليم السلالية . غير أن الرأي العام العالمي هب بسرعة ، لمقاومة مثل هذه الاوضاع ، على الرغم من أن المزاعم السلالية كانت قد أصبحت دروساً جامعية مطروحة للتعمق فيها ؛ وكان أن ظهرت ، عشية الحرب العالمية الثانية ، دروس كثيرة يحاول مؤلفوها الكشف عن غرور هذه النظريات وخطرها .

٣ ـ تكريس علم ما قبل التاريخ

سنة ١٨٥٩ ، جاءت بعثة الخبراء البريطانيين لتراقب اكتشافات بوشه دي بيرت . وفي السنة نفسها، ظهرت مقالات صحفية تؤيد علمية الوثائق التي درسها هذا الفرنسي الشجاع المتناوِل درس ما قبل التاريخ . وشارل لِيال، العالم الأثري الكبير ، الذي كان عضواً في البعثة ، أكد موقفه من الوثائق المدروسة في مؤلّف مشهور تُرجم إلى الفرنسية ترجمة ظهرت ، سنة ١٨٦٤ ، تحت اسم « قِدم الإنسان كما تثبته الجيولوجيا » . وكانت هذه الاشغال ، حتى ذلك الحين تحمل على بقايا « صناعات » ناس الحفريات ؛ هؤلاء الناس الذين كان يجب أن نكتشفهم أنفسهم . ومن ذلك الحين اتجهت العقول الى قبول الوقائع ، مهما كانت هذه الوقائع . فراحت الاكتشافات تتتابع نظامياً مدة ثلاثة أرباع القرن مع مماثلات الانسان النياندرتالي، والانسان الكرو-مانيون ونماذج أخرى الانسان العاقل، كبعض ما عُثر عليه في حفريات مختلفة الاصقاع : كالانسان البيثيكانتروبي[1] والانسان السينانثروبي[2] وإنسان الصحراء

---

١ ـ عظام بشرية وجدت في حفريات في جاوى سنة ١٨٩١ ، وهي ذات ميزات عديدة . (المترجم)

٢ ـ آثار تنتمي الى بدائية قردية ، وأخرى بشرية ، وجدت في حفريات على مقربة من بكين . (المترجم)

الغربية .

ولقد بدأ هذا الاهتمام بإعادة بناء تاريخ الأسلاف الأقدمين، في تموز سنة ١٨٥٦ ، في وادي نهر نياندر ، في ألمانيا ، عندما كشف بعض عمال المناجم عن هيكل عظمي ، كان مشوهاً لسوء الحظ : « هيكل الانسان النياندرتالي » . ولكن قبة أعلى الرأس كانت في حالة جيدة ، ولها جبهة متراجعة مع محجرين ناتئين ، لم يتردد العالم البيولوجي فيرشو في قول أن فيها تشويهاً مرضيّاً . وقد تتالت الاكتشافات المشابهة بكثرة، وأجمع القول بوجود نموذج بشري ما يزال مجهولاً، وبأنه متوغل في البدائية ، وبعيد الزمان أكثر مما عُرف حتى الآن . وكل الحفريات التي كشفت عن آثار الماضي تعود الى القسم الأول من العصر الجيولوجي الرابع ، عصر الحجر المفصّل .

وفي العهد نفسه ، وصف باحثو ما قبل التاريخ الاوائل بالخطوط الكبرى تنظيماً متسلسلاً قائماً على معرفة أعمار طبقات القشرة الارضية . وفي سنة ١٨٦١ ، اقترح ادوار لارتيت أول تسلسل جاء مرتبطاً بما قدمته الحفريات من علم بالأجسام الحية، قائماً على تتابع الأحياء. وجاء ابنه لويس فأخرج الى الضوء ، من وادي فيريز ، الانسان كرو-مانيون . وفي لندن ، قام جون لوبّوك ، سنة ١٨٦٥ ، بادخال مميّز رئيسي بين العصر الاول مما قبل التاريخ والقسم الأول من العصر الجيولوجي الرابع ،

وذلك في كتابه « أزمان ما قبل التاريخ » الذي تُرجم سنة ١٨٦٦ ، تحت عنوان : « الإنسان قبل التاريخ » .

وفي سنة ١٨٦٩ ، اقترح غبريال مورتيلله محاولة أخرى في تسلسل ما قبل التاريخ ، تقوم هذه المرة ، على تتالي التقنيات . وقد لقي هذا الوضع النظامي تجاوباً عظيماً في الخارج؛ والطبقات التي ميزها ، كانت معظمها جديرة بالحفظ . فالعصر الأورينياسي[1] جُدد زمنه في ما بعد ، بما عُرف بالمميز الرئيسي المتقدم ذكره؛ وقد أدخل مورتيلله بينهم، مرحلة انتقال ثقافية ، مقدماً مثلاً : تأثر التوراسيان بالأزيليان ؛ وهذا هو العصر الميزوليتي[2] الذي سمّاه مورتيلله نفسه . وبهذا انتهى تطور ما قبل التاريخ . ومما يلاحظ أن هذا النطاق ، الذي تمايزت فيه عصور مختلفة بصورة مضبوطة ، استناداً الى صناعات نموذجية مميزة، ما يزال سارياً حتى اليوم .

ولقد أنهى اكتشاف النماذج ، ابتداء من سنة ١٨٧٢ ، حق اعطاء امتيازات للابحاث المتناولة ما قبل التاريخ . نذكر من

---

١ ـ الجزء ، من اول عهد مما قبل التاريخ ، الواقع في حوالي ٠٠٠ ١٢ سنة قبل الميلاد ، كانت فيه الصناعة تتميز بالحد القاطع المصقول من الصوان « السيلكس » او العظم . (المترجم)

٢ ـ الجزء الذي جاء ابتداء من (٠٠٠ ١٠ ـ ٨٥٠٠ ق.م.) الى ٥٠٠٠ ق. م. ويتميز بدفء المناخ ، وبروز الاكواخ للسكن بالقرب من مجاري المياه . (المترجم)

تلك النماذج ما يلي : نماذج غريمالدي [1] وسبـاي ، ثم نماذج شانسيلاد ، وهي التي أعاروها أهمية كبيرة زمناً طويلاً ، والتي أصبحت اليوم أسهل فهماً ، ثم نذكر الاكتشـاف الشهير ، في جاوى ، الذي حققه الطبيب الهولندي إوجين دوبوا، ١٨٩١، إذ اكتشف الانسان البيثيكانتروبي ، الذي كثيراً ما بحث عنه المنقبون العلماء ؛ وأخيراً ، نذكر نماذج انسان الموئير ، سنـة ١٩٠٧ . وعشية الحرب العالمية الأولى ، جرى حادث عظيم ، وهو أن اكتُشف في انكلترة ، وفي بيلتداون من بلاد الساكس ، رأس عظمي خارق المعتاد ، مؤلف من جمجمة ذات شكل انساني متطور ، له فك سفلي ذو ميزات ساميّة . وهـــذا « الانسان البيلتوني » أثار كثيراً من الجدل حتى سنة ١٩٥٣ ، وهو تاريخ قامت فيه دلائل التحاليل باظهار الأسف على الجهود التي ضاعت حول أثر خادع . وقبل هذا بقليل كانت قـد اكتشفت النماذج ذات الجمجمة المستطيلة ، في برية ألمانية ، يعود وجودها الى ما قبل التاريخ ، وهي النماذج الأولى التي نستطيع ان نقارنها بالنماذج التي وجدت في الشمال الأوروبي ، كالتي عُثر عليها في أوفنه ، في بفاريا . وتضاعفت أعمال التنقيب، وخاصة في فرنسا ، حيث توافر منها عدد كبير من الوثائق . وفي سنة

١ ـــ اسم سلالة انسان من قبل التاريخ اكتشفت بقاياها في مغاور غريمالدي في ايطاليا على مقربة من مانتون . (المترجم)

١٩٢٥،وفي ما بعدها من الثلاثينات، اكتشفت ، في فلسطين ، هيا كل عظمية يعود وجودها إلى ما قبل التاريخ الأدنى والمتوسط، أي بين (١٠٠٠٠ – ٨٥٠٠) ق.م. الى ٥٠٠٠ ق. م. أما ميزاتها فهي وسيطة بين الانسان النياندرتالي والإنسان العاقل. وابتداء من سنة ١٩٢٨ ، أخذت الآنسة غارود تصف الممثلين الأول للنموذج المتوسطي الذي عثر عليه في فلسطين. كما كانت قد بدأت ، سنة ١٩٢١ ، الاكتشافات الصينية السينانتروبية طريقها الى الانتشار ، مقرونة باسم المكتشف الأب اليسوعي تيار دي شاردين . ولكن حرب الصين واليابان كانت سبباً في فقدان قسم من الصناديق المحتوية مجموعات من العظام الاثرية ، إذ ان الحرب انتهت ولم تنته الاضطرابات الداخلية في الصين ، التي عبثت بكل شيء ، إلا بعد حين من انتهاء الحرب .

وقد أعانت هذه الاكتشافات المختلفة على إعادة بناء المسلسل الأساسي لعلم الأحياء ، الذي انتهى الى النماذج البشرية الحالية . هذه النماذج التي أثبتت وجودها الحفريات الكثيرة ، فكانت هذه الوثائق الهامة ، التي نورد أهمها في ما يلي :

إنسان التالزايي الأوسترالي ، المكتشف في اوستراليا سنة ١٩١٤ والذي يشابه الإنسان الوادجاكي ، الذي عثر عليه في جاوى ، سنة ١٨٩٠ ؛ والإنسان الآسلاري الذي وجد في الصحراء وكشف عنه ، سنة ١٩٢٧ ، في مشتى العربي ، سنة

١٩٢٧ ، وهو يشابه إنسان كرو – مانيون ، الذي عثر عليه في الجزائر سنة ١٩٢٨ . ومن جهة أخرى ، وصف دارت ، سنة ١٩٢٥ ، الإنسان النموذج المشابه القرد ، من بقايا العصر الجيولوجي الثالث ، والذي وجد في الجنوب الافريقي، وعرف بالأوسترالوبيتي ، وهو يحسب بلا شك حلقة رئيسية من مسلسل علم الأحياء تكشفه الآثار .

٤ نظريات ومدارس عرقية

١ - نزعات وطرق

من الممكن أن نتبين ، في فكر مختلف مؤلفي القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، تأثير بعض النصوص ، وبعض التيارات المسيطرة ، التي تساعد على تنسيق هـــذه المؤلفات في بعض مجموعات . لا يُنسب المؤلفون كلهم الى « مدرسة » معينة ، ولكنهم كلهم او جلهم يصدرون عن نزعة خاصة تساعـد على وضعهم في تاريخ الأفكار . وسنحاول هنا ، دون أن نغفـــل جانب الحـكم الذي يتجنب الغرض ، أن نمايز بين ما تتناوله هذه التصنيفات ، والنظريات ، والمدارس العرقية التي تجابهت حتى اليوم . ونعني بكلمة نظريات ، المجموعات النظامية ، المعتمدة بعض المبادىء الاساسية والمنتمية الى نوع من الايديولوجيـا ،

التي تطمع بدمج الوقائع تحت ظواهرها غير المتآلفة، وفي نطاق بناء منطقي. ونعني بكلمة مدارس، القيام بالعمـل التجميعي، على صعيد أكثر برمجة، بشكل يضم عـــدداً من المفكرين المتوافقين على بعض النقاط الرئيسية، والمحتفظين بالبعض الآخر لتفرّدهم بالاصالة الذاتية، ولكنهم أقاموا علاقات تصل بعضهم بالبعض الآخر، فكان لهم تأثير على العمل المنتسبين اليه. أما النطاقات المادية التي فيها تتسع مجاري افكارهم وعلاقاتهـــم الخاصة، فيمكن أن تكون مختلفة جداً: جامعة او مدينة، مدرسة فييننّا مثلاً، الـتي تجـاوزت حـدود المدنية، او المدرسة الالمانية، وفي هذا شيء من الإفراط في لغة التسمية، او أن نعني مجموعة أوسع فنذكر المـدرسة السوسيولوجية الفرنسية، التي كان ينتسب اليها رادكليف براون، مثلاً. ومرة أخرى نعود الى مـــا سميناه فنقول: ليس في هذه الاشياء ما هو في صيغته النهائية ولا في معناه الذي لا يتحول، لأنها أشياء مألوفة اكثر منها دقيقة: فكل الاحـــتمالات ممكنة، وكل المفاهيم تُمثّل؛ ولكن ما لا بد منه هو أن نُدخل نوعاً من النظام تحت مظاهر الاختلاف.

قبل أن نباشر درس الرجال ومؤلفاتهم نرى انه من المفيد أن نصف الخطوط الكبرى «للنزعات» التي تتقاسم علمـــاء العرقية. وهي نزعات قليلة العدد، تتلاءم، على صعيد العمل،

وايديولوجيات مختلفة ؛ أما على صعيد الانسان فانهـــا تلائم مزاجه ، وتربيته ، أو البيئات المتباينة الصفات ، التي ينتمي اليها . لذلك سنراها فاعلة بالنسبة الى كل مؤلف في حـــدود الملاءمة التي أشرنا اليها . وسنكتفي الآن بأن نذكر في مخطط تسلسلي الميزات الاساسية .

١ - **الارتقاء التطوري الوحيد النسبة** . ـ انـــه يعتبر المجتمعات البشرية ، كأنها تؤلف مجموعة موحــدة ، خاضعة لحركة شمولية . ويؤكد النشوء التطوري متأثراً بنظريات عـلم الاحياء النشوئية ، ان الجنس البشري في تقدم وئيد ،على الصعيد الثقافي ، ويشدد على ان يستخلص مراحل التغير التي يستتبـــع بعضها بعضاً في سلسلة متآلفة الحلقات . وهكذا تكون البشرية قد اجتازت عدداً من « الاطوار » التي ما تزال بعض الشعوب « البدائية » المعاصرة شهوداً لهــا تحمل طوابع آثار الماضي . ويُعتبر مورغان الممثل الرئيسي لهذا المجرى من الافــكار ذي الأهمية الفائقة التقدير حتى أيامنا هذه ، والتي تُبعث حية في الولايات المتحدة ، مثلاً ، تحت شكل ارتقاء تطوري جديد .

٢ - **الارتقاء بالمقارنة** . ـ ان هذا النوع من الارتقاء يواجه ، بصورة معارضة ، الارتقاء التطوري ؛ فيؤكد ان المجتمعات لا يتم تطورها مسبباً عن حركة عُمق ، تجر نتائج متوازيـــة ، ولكنه يتم بالتماسّ القائم في ما بينها : ففي مواجهة كل مشابهة

ثقافية يمثلها مجتمعان ، تتمثل مبادلة من انعطاف تـــلاقٍ او استقامة تحدر . والارتقاء التطوري يختار ، مبدئياً ، الصيغة الأولى وينتهي الى مقارنة ثقافية تتولد من تتابعين تطوريـــين مستقلين ذاتياً . اما الارتقاء بالمقارنة فيتناول الصيغة الثانية ، ويرى في التطابق الثقافي نتيجة طابـع أحدثته احدى المؤسستين على الأخرى . وفي مفهوم الارتقاء بالمقارنة ان الحوادث المجتمعية تفسر ذاتها بالتزاوج الثقافي ، لأن قوى الانسان الاختراعيــة ضيقة الأبعاد : فالتجديد أو الجديد الانساني يولد في مكان محدود ، ومن هناك ينتشر بذوبانه في الأبعاد . وأصل هــذه النزعة يمُتُّ الى علم تنظيم المتاحف . ولعل المدرسة المعروفـــة بـ « مدرسة فيينـّا» التاريخية الثقافية ، الموسوعة الثقافية ، خير مؤسسة تمثل هذه النزعة ، التي لازمها إسما : غريبنير والأب شميدت . وليس « الغلو في الارتقاء بالمقارنة » غير التابـع المنطقي والفج معاً ، لهذا المبدأ التفسيري: فانه لم يقبل غير وسط واحد للتوزيـع الثقافي : هو مصر القديمة .

٣ ـ النزعات التحليلية . ـ هذه النزعات يمثلهـا بُواس ولُوي ، اللذان يعتبران معلمَـي علماء العرقية الاميركيين كلهم تقريباً ، ويجب أن تفهم أنها كانت ردة فعل ، شديدة ككل ردات الفعل ، ضد نظريات الارتقائيين التطوريـين القائلين بالأنتساب الأمي أو الاحتساب الأبوي . وهي ردات فعـــل

اتخذت بعض الأحيان مظهر عواطف كانت مكتومة ، أمام تمادي الآخذين بالخطوط الكبرى لهذه النظريات . والتسمية « درس بنيات الأحياء » تصف بشكل واف وضع هؤلاء المؤلفين ، الذين يطلّقون كل فكرة تطور انتسابي أو احتسابي ، مفضلين على التعليلات السابقة زمانها ، إن لم تكن مستحيلة أو لا معنى لها ، جهد التحليل الصابر للاشكال الثقافية المختلفة . وهذه الأشكال المختلفة بوضعها ، تظهر الخطأ الاساسي الذي يثقل مؤلفات اسلافهم ، يعني التهافت في وصف المؤسسة ، الذي لم يكن وصفاً بل مجموعة متباينة الأجزاء من العادات المختلفة الطبيعة ، التي لا يمكن أن تجمع بغير إفراط في التعبير ؛ وهكذا يمكن أن تكون شيئاً من الأخذ بما يبدو مشابهة بين الحيوان والإنسان ، أو أن تكون بعضاً من تجمعات العمر . وعلى هذا الأساس تُرفض كل دلالة تشير الى مراحل تطورية . ويصار الى التنويه : بالخاصة التي تملكها بعض المواد لتظهر في تبلورات متنوعة رافقت حضارات متعددة ، وبمجمل الشروح التي يدعو إليها ، غالباً ، حادث أشير إليه كأنه تعبير عن سبب وحيد ذي قيمة في مجرى الزمان والمكان . ومن المؤكد أن هذا الوضع يفضي بسهولة : الى نوع من الرفض ، الى تعميم تشاؤمي سهل ، يمكن أن يصبح عند البعض نوعاً من المنفذ الى الهرب المبالغ في اللجوء إليه ، وإلى ترقيش وصفي عرقي . ولكن ، من جهة يجب ألا ننسى المحتوى التاريخي الذي ولد فيه هذا

الوضـع ، ومن جهة أخرى ، يجب أن نعترف أن المطلوب استرجاع حق لقاعدة علمية سليمة تهدف الى تطليق كل مجاملة مشبوهة تتناول الأفكار المسبقة والنطاقات النظرية، التي حُشر فيها بكثرة بالغة ، وبتعسف شديد ، كثير من الأحداث الاجتماعية .

٤ - من علم النفس الى المجتمعية المنفعلة بالثقافة [١] .- الى جـانب هذه النزعات الكبيرة الفاعلة في الفكر العرقي ، نجد أشياء أخرى تحسن الإشارة إليها . من هذه الأشياء فلسفة علم النفس أو بتعبير آخر ، جعل علم النفس فلسفة قائمة بذاتها وتعرف بمدرسة دوركهيم التي انتهت إلى إحلال مفاهيم اوروبية محل الفئات الأصيلة في بلادها؛ولكن هذا ليس إلا مظهراً ثانوياً لمؤلف لم ينضب خصبه بعد. فالحركية[٢] ومحاولات التفسير التي من هذا الصنف ، ألا تتبـع كلها طريقة مماثلة؟ والبدائية[٣]التي منهجها لوسيان ليفي-برول،والتي أسيء فهمها غالباً ، يمكننا أن نقدمها ضداً،لأنه أراد بها ، في صيغتها الأولى،عرض نموذجين من

---

(١) مدرسة اميركية انتروبولوجية تميل الى اعتبار المناخ الثقافي الفاعل الاساسي في مألوف مجتمع ما ، على عكس الاعتبار القائل بتأثير الطبيعة في اساس المجتمع . (المترجم)

(٢) دين يفترض روحاً لكل نواميس الطبيعة ويحاول ان يجعلهـا ملائمة ... بطريقة سحرية . (المترجم)

(٣) اعتماد البدائية اساساً للظواهر الانتروبولوجية . (المترجم)

الذهنية : في الأول يحتفظ للبدائيين بمألوف النهج الميثولوجي ، وفي الثاني نستعرض ليفي - برول ، وهو يؤالف بين خلاصاته الجزئية ليجعل منهـا فئات عامة من الفكر . والنظريات الميثولوجية تشغل موقعاً وسيطاً بين الحركية والبدائية . وقد ظهرت ، منذ زمن غير بعيد ، نزعات مختلفة تريد أن تطبق طرق التحليل النفسي على تفسير الأعمال البدائية ؛ وهي نزعات تتبع طريقاً كان قد فتحها فرويد نفسه ، ولكن فتحها رافقه شيء من الزهو . وهناك بعض النظريات كنظرية الشخصية القاعدة عادت تعتمد ، بصورة جزئية ، بعض مختلف معطياتها من خطوط الماركسية الكبرى ، في مزيج من التفسير الاقتصادي ومن الحصيلة الضميرية في علم النفس ، وهذا ما لم يكن قد أشير إليه في ما مضى .

ولقد حاول كل الباحثين ، المستمدين من الدرس الفرويدي العظيم ، أن يفسروا الخطوط الثقافية النوعية التي تميز مجموعة من الناس ؛ نذكر منهم : لنتون وكاردينير وبينيديكت و م. مياد . ومن اختيار النصوص الأساسية التي انتقاها هؤلاء الباحثون تطل لهجة سلطوية تم ، بشكل عارض ، عن أنها في وضع مدرسي . وبما انه يبدو صعباً تجميع هذه النزعات في صيغة واحدة ، فقد اقترح تمثيل العقلانية بأشكال ، بدت في

الفرنسية ، عملا شاقاً نوعاً ما ، وقد احتُفظ بعنصر الثقافة كميزة لمؤلفات كروبير . وسندرس هؤلاء الباحثين تحت تسميتهم « محددي نماذج عرقية » استناداً الى مجموعة من المعطيات .

٥ ـ تعبير الدور الجماعي عن بنيات المؤسسة . ـ ان القائلين بهذا التعليم يعتبرون المؤسسة قائمة بمعناها العملي في الدور الذي تؤديه جماعياً ، اي الوظيفة التي تملأها في قلب المركّب الثقافي . والواقع لا يتجلى بكل وضوحه الا عندما يؤخذ في مجموع تعابيره في نقطة معينة من الزمن ، دون اللجوء الى التعبيرية في المجرى الزمني غير المحدد : اي في مظهره الحالي دون الرجوع الى المعطيات التاريخية المحكوم عليها انها فضول لا أساس . وقد حدد مالينوسكي صيغة مبادىء هذه الطريقة الجديدة ، ذات المظهر الايجابي الجدير بالاهتمام : كما هي الحال في اختبارات كوفيه الكلاسيكية ، وفي نهاية الأمر ، يصبح تجديد بناء هيئة اجتماعية ممكناً نظرياً ، ابتداءاً من أحد المعطيات المبدئية ، لأن كل شيء يكون عندئذ في حال من تبادل التأثير والتأثر. وقد اوضح مارسيل موس هذه الضرورة « العدائية » مُظهراً أن كل عمل مجتمعي هو « عمل جماعي » وأن الانسان « غير قابل التجزئة ». وموس من المنتسبين ، ولو بصورة غير مباشرة ، الى القائلين بتعبير الدور الجماعي عن بنيات المؤسسة ،ولكن دون ان يتبنى مبالغاتها وأخطاءها. وأم

تلك الاخطاء هو ألا نفهم الأهمية الحالية من العائشين ، ومن التقاليد المتمثلة في بلورة ثقافية بسيطة .

٦ ـ البنيوية في مفهومها العرقي والسيكولوجي . ـ لقد ثبتت صحة استعمال طريقة لترجمة الأحداث المجتمعية ابتداء من اشتغالات علماء التعبيرية . وهي طريقة حديثة الظهور ، ولكننا لن نتصدى لتحليلها هنا . هكذا تبدو لنا النقـاط الرئيسية من وجهة النظر التي نرتكز عليها لنترجم الحوادث المجتمعية . وإذا كان ، في مجال الاهتمام بتوسيع الذاكرة على حساب التمارين الملائمة ، لا بد من اختصار أوضاع هذه النزعات الراهنة ، في بعض كلمات ، فنقول ، ونحن امام مختلف من البشر المعاصرين ، إن الإرتقاء التطوري الوحيد الانتساب يلازم تحديد المحطات ، والتغيرات المتعاقبة ، ومراحل النمو . والارتقاء بالمقارنة يلاقي انعكاسات أو علاقات أو ملاحق ، فدارسو أشكال وبنيات الأحياء مثل بووا ولووي يسجلون أنماطاً ، ومظاهر ، وأشكالاً ، أما المعبرون عن بنيات المجتمع بالدور الجماعي فإنهم يركزون على التحركات شبه الآليـــة ، الحيمة الصلات بحيوية الآلة الجماعية الشاملة ، الفاعلة في تبادل من المسؤولية . وأما في ما يختص بالبنيوية في مفهومها العرقي السيكولوجي ، فإنها تبحث عن استخلاص الأنماط ،واستحداث التمثيل الوسيط بين المفهوم والأداة اللذين يبنيان من المؤسسات

والاخلاق جماعة ذات معنى . ولقد وضعنا في ما قدمنا من اشارات تنويهية ، المبادىء الاساسية المميزة ، كما يبدو لنا ، كلاً من هذه النزعات الكبيرة .

وقبل ان نباشر درس هذه النزعات نُدخل هنا ولادة انضباطية جديدة هي علم نفسيات الشعوب . إنه علم فتي يهمنا مباشرة لأنه ، بشكل ما ، توأم العرقية . وقد كان كذلك قبل أن يُحشر في هذا النطاق ، من هذه الانتروبولوجيا العامة ، التي نراها ترتسم اليوم . وقد يكون سهلاً ان نجد له أبعاداً سابقة ، مع بوزيدونيوس ، وهيرودوتوس وكثير آخرين . ثم مع الايطالي فيكو ومع « فلاسفة عصر الأضواء » الفرنسيين ، والألماني هيردير الذين كانوا رواداً . ولكن ولادة علم النفس العرقي تحققت في المانيا ، في القرن التاسع عشر . ومؤسساه هما لازاروس وستينتال اللذان سميا هذا العلم « السيكولوجيا العرقية » ونظماه ، سنة ١٨٥١ ، وباشرا ابتداء من سنة ١٨٥٠ نشر جريدة السيكولوجيا العرقية ، في سنة ١٨٥١ . وجاء الفيلسوف الفرنسي ألفرد فوييه ليكون سابقاً في الابحاث المتناولة « ميزة الأمة » في كتابيه : « سيكولوجيا الشعب الفرنسي » (١٨٩٨) و « وصف الشعوب الأوروبية بالخطوط السيكولوجية الكبرى » (١٩٠٢) . ومع الالماني وندت (١٨٢٠ - ١٨٣٢) ومجلداته العشرة في السيكولوجيا العرقية ، فارتكز علم النفس

العرقي على قواعد علمية . أما ريشار تورنوالد ، فان حصيلته تسجّل على صعيد آخر ، ومع ذلك فقد كان « استاذ العرقية وعلم النفس العرقي » في برلين . وأما في فرنسا ، فقد ابتدع المؤرخ هنري بيرّ « عرقية جماعية » وكان صنيعه هذا بعد ستيوارت ميلّ في نحو سنة ١٩٢٥ ، دون الخروج من حقل النظريات . وجاءت جهود العلماء العرقيين الاميركيين لتحل محل هذه الحركة الاوروبية بانشاء ما سموه مدرسة « الثقافة والشخصية » .

٢ - الكلاسيكيون الاوائل

من باستيان الى مورغان

لم يكن باستيان ولا باشوفين ولا مورغان من كبار الرحّالة بل كانوا جامعي معلومات مقيّمين : فهم ، على أفضل افتراض تبحّروا في وثائق جمعها آخرون . ولكنهم أثاروا أحياناً ، اشتغالاً يتناول ما هيأه غيرهم ، فمورغان ، مثلاً ، اشتغل في تحقيق مخططات هذبها غيره أكثر مما اهتم بجمع مواد لم تمتد اليها يد .

إن تفكير معظم هؤلاء المؤلفين ، من الثلث الثالث من القرن ، هو ، على الرغم من أمزجتهم المختلفة ، وحلولهم المتباينة ، خالص متفرد ، لأنه قائم على المسلّمات نفسها. غير أن أدولف

باستيان ، بالنسبة إلى هذه المجموعة ، يحسب على أصالة موضوعية حيناً ، وهامشياً حيناً آخر : ذلك لأنه طبيب ، يعيش في زمن جذري التطور ، في الوقت الذي كانت فيه تتهذب تعاليل الانتساب الواحد ، والتنظيمات الكبيرة لباشوفين أو لمورغان ، الذي جاء متأخراً قليلا ؛ فراح هذا الطبيب يعلن أفكاراً مستقلة ويؤكد صحتها . وسبب وقوفه موقف المعادي للارتقاء التطوري في العلوم الإنسانية يجب أن نبحث عنه في حقل آخر ، هو حقل علوم الحياة : فباستيان عالم بيولوجي ، تتلمذ على فيرشو ، وهذا هو العالم الذي ثبت لمعالجة التشويهات المرَضية وآثار الماضي المأخوذة من الهياكل العظمية النياندرتالية ، وهو العالم التحليلي الذي اكتشف الخلية ، وخصم كل نظرة سطحية شكلية ، وعدو داروين . وهذا العداء الموجه إلى الداروينية ، في نهج توسعي سهل التناقل واضح الكشف ، وجّه فكره العرقي.

وفي سنة ١٨٥٩ ، نشر كتابه « الانسان في التاريخ » ، الذي أحدث دوياً عظيماً ، أما مؤلفاته الأخرى فقد جاءت متأخرة عن مؤلفه الأول ؛ ويلاحظ أنه في خلاصاته العامة ، التي ظهرت في سنة ١٨٨١ تحت عنوان « العلاقة السلالية في تطوير علم الإنسان » ، أعاد النظر في بعض من مواقفه القديمة ليؤكد أن وحدة المكان شرط لا بد منه في « الذهنية الإنسانية » ، على الرغم من كل الاختلافات السطحية . وهكذا نستطيع أن

نرى في باستيان مؤذناً : بالارتقاء بالمقارنة وبالتعبير الجماعي عن بنيات المؤسسة ، في آن واحد ؛ وهذا ما يبدو واضحاً في النص الأول الموجود في مؤلفه ، وهو نص معالج في توسع كبير. ولقد أصبحت فكرة المناطق الثقافية الجغرافية التي تناولها المؤلف فدرسها ، ومحّصها ، وجعلها بيادراً محدودة يتجلى عليها التأثير الثقافي المسيطر ، هذا التأثير الذي صار ، في ما بعد ، المبدأ المفتاح لمدرسةفييننّا .وتحت تأثير معجب بالمجتمعات الهند وأميركا ، ألف باستيان ، من جهة أخرى ، أولى أبكار التعاليل المتناولة دراسة أميركا ، في ثلاثة مجلدات : انتهى منها بين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٨٩ ، واسمها « الثقافات في اميركا القديمة » . وكان أيضاً محققاً : فأسس سنة ١٨٦٢ ، « مجلة العرقية » ، كما كان واحداً من الطليعة القائلة بالعرقية علماً قابلاً التطبيق . وبين ١٨٧٨ و ١٨٨٩ ظهرت المجلدات الثلاثة المكرسة للحضارات الاميركية في ما قبل كولمبوس .

وفي الفترة من الزمن نفسها ، كان الانكليزي ج. ف. ماك لينان ينشر في لندن مؤلفه « الزواج البدائي » ، سنة ١٨٦٥ ، حيث أخذ على عاتقه أن ينوه بأهمية التسلسل البنوي المتحدر من النساء . وبعد مضي عشرين سنة ، أعاد النظر في هذا النص بين مجموعة من الدروس المخصصة للتاريخ البدائي ، فنشر كتابه «دروس في التاريخ القديم» ، سنة ١٨٨٦. كما نشر قبلها «نظرية

الأبوة » ، سنة ١٨٧٢ . ولِماك لينان أهمية تعبيرية تظهر في المفردات التي استحدثها من مثل قوله : في الزواج الإجباري داخل القبيلة ، وفي الزواج الإجباري خارجها ؛ ودرس الزواج من أرملة الأخ المتوفي دون وارث ، معتبراً هذه الحالة متصلة عضوياً بحالة المرأة التي لها أكثر من زوج ؛ وقد لفت الانتباه إلى معاني بعض المصطلحات العلمية ذات القرابة غير البيولوجية ، كأن ندعو العم أباً لنا ، دون أن يتابع البحث في هذاالسبيل؛ ولم يغفل عن أن يعير اهتمامه الى حالات الإقامة . ولكن روحه النظامية ، التي قلما كانت تعنى بضرورة التحقيق ، حملته على تنظيم الوقائع المختلفة التي لاحظها في شكل هندسي ، لم يكن غير بناء متألف الأجزاء أقامته الروح ؛ وانطلاقاً من موت البنات عند الولادة ، نسب تعدد الأزواج للمرأة الواحدة إلى الاختلال في العلاقة الجنسية . ولكن لماذا نمنح أحد المعطيات امتيازاً مختاراً ، يمكن أن يضطرنا إلى أن نضعه في أحد الملفات الخاصة بهذا العلم ؟ وما يجب أن نستبقيه من حق لماك لينان هو أنه كان مع باكوفين رائدَي تحاليل القرابة .

وفي سنة ١٨٦١ ، ظهر تباعاً كتابان ، في شتوتغارت وفي لندن ، كانا فاتحة الطريق الى نظامين للأبحاث ، ما زالا حتى اليوم يزدادان انتشاراً : الاول وضعه ج. ج. باكوفين ، وفيه تأسيس عرقية القرابة ، التي أطلقها ماك لينّان بعده ،

بصورة فورية ، كما تقدم الكلام ، ثم تلاه مورغان . والثـــاني « القانون القديم » مؤلفه هـ. ج. سومنير مين ، وفيـــه يدش الاشتغال بالعرقية القضائية والسياسية ، التي كُسف انتشارها، في غير ألمانيا ، وخاصة في الحقل القضائي ؛ وكان ذلك بدافع الحفاظ على حياض الدين ، والسحر ، والفن ، والتنظيم العائلي ، والكثير من مظاهر الثقافة المادية . وكان يجب ان ننتظر نهاية الحرب العالمية الأولى ، لنرى في انكلترا، وفي الولايات المتحدة، تجديداً دائماً يهدف الى خير التنظيم السياسي، ولنصل الى مرحلة من الزمن ، ما نزال في أولها ، تظهر في انكلترا،وفي هولندة ، وفي بلجيكا ، وفي فرنسا ، دروس عرقية قضائية .

إن « نظام الأمومة » يبدو كأنه تجديد نظري لبناء تاريخ القرابة على تحقيق وثائق وصف العرقية ووضع الأشياء مجدداً في أماكنها ، كأنما قطع لعبة الصبر المعروفة بـ « Puzzle » ، حيث الأجزاء المتتالية ، في اوقاتها المختلفة ، كان يمكن أن تتبلور في مؤسسات بعض الشعوب « البدائيـــة » ؛ وهؤلاء الأحياء الباقون ، السعداء بالنسبة الى الباحث ، يتيحـــون له إعادة رسم حلقات السلسلة المختلفـة « المحطات » . وهكذا نستطيع أن نرى المسلّمات التي تفرضها هذه الطريقة . وهكذا أيضاً نستطيع أن نتبين ثلاث محطات للقرابة في زمن مـا قبل التاريخ : أولاً محطة المخالطة الجنسية البدائية ، ثانياً محطـــة

النموذج العائلي عن طريق الأم ، زمن تسلط النساء في البقاع التي ولدت فيها الزراعة على يدي المرأة المستقرة مكاناً ، ثالثاً محطة النموذج العائلي عن طريق الأب ، وهي المحطة الممتدة حتى العصر الذي نحيا فيه. وقد حدد باكوفين صيغة أفكاره، التي كثيراً ما تناولها الباحثون بعده ، كالمخالطة الجنسية البدائية ، وأسبقية التعريف العائلي عن طريق الأم مع الحياة الزراعية . ولم يكن قط أول من لفت الانتباه الى أهمية التعريف العائلي عن طريق الأم ، هذه الأهمية التي هي موضوع مناقشة كثير التناول ، اليوم . وقد نوّه به هيرودوتس وآخرون كثيرون ، والرحالة الفرنسيون ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وتكررت أمثلتهم على ذلك بالتفصيل الوافي ، ولكن هيرودوتس يبقى أول من دشن ترجمة البنية العائلية ترجمة عرقية . ومن جهة أخرى درس مختلف المؤسسات ، في علاقاتها ببنيات القرابة ، مثل مفقس البيض .

أما لويس هـ. مورغان (١٨١٨ - ١٨٨١) فهو الممثل الاساسي للارتقاء التطوري ذي الانتساب الواحد ، إذ لخّصه وصوّر فكرته ، ولكن بحثه ذهب الى أبعد من التخطيط التمثيلي الذي أُريد له أن يُحتجر فيه . وكان لحصيلته ، في هذا الصدد ، تقدير حماسي أبرزه أهل زمانه ؛ ومن جهة أخرى ، أفاد منه أول فوج من الماركسيين إفادة كبيرة . وأما مورغان

فإنه اليوم ، يعاني كرهاً شديداً ، في بعض جوانب آثاره ؛ وهذا الكره ولّدته ردة فعل جاءت تعاكس الاطمئنان الذي نالته مبادئه العلمية ، مبالغاً فيه . فنظرية القرابة ، تجاوزت ، دون شك ، تجاوزاً كبيراً تقديرات مورغان الفجة : ولكن ليس من العدل أن ننسى ما هو دَين لهذا العالم النظري ، على هذا الصعيد أكثر منه على أي صعيد آخر ، وهو أنه يُعتبر مؤسس هذا الفرع الهام الحقيقي من العرقية . واذا كان حقاً يستحق هذا اللقب، فالفضل عائد الى نشره نظريته العامة، التي ظهرت سنة ١٨٧١ ، تحت عنوان : « نهجية التحدر الدموي وتركيزه في العائلة البشرية » . ولكن « المجتمع القديم » كتاب بلغ انتشاراً أوسع بين القراء : فدويُّه جاء واسع الامتداد ، لأنه كان يحمل مبادىء أساس بسيطة وحججاً مفحمة تبدو كلها مفسحة للذهن مجال جمع التحقيقات التطورية ؛ ولأنه كان يمثل ، تحت مظاهر مغرية ، بناء مجدداً ، يتصف بالوضوح و « المنطق » ويتميز بـ « محطات » لسيرورة المجتمع الانساني . وفي هذا الكتاب نتبين ثلاث مراحل في تطور الانسان : الوحشية ، والهمجية ، والمدنية ، مقسماً كلاً من هذه التطورات المتعاقبة ومحدداً إياها ابتداء من المبادىء الفاصلة في التحقيقات التكنولوجية . وعلاوة على هذا كان يتقيد تقيداً تاماً بطريقة العصر ، التي كانت تؤمن بركيزة فكرية ؛ هي صورة الارتقاء

السحرية . ونحن نعلم ، بالاستناد الى بعض دهاء التاريخ ، ان هذه التوراة المجتمعية الجديدة أصبحت المرجع الوثائقي الذي اعتمده ماركس وأنجلز : فالاثنان مفكران مشهوران لهما من الفطنة ما أبعدهما عن الاهتمام بالمرقية ، فاكتسبا ، بقراءاتهما وملاحظاتهما ، معرفة بالمجتمعات القديمة جداً لا يُستهان بهما ، هذه المجتمعات التي دخلت في اسلوبهما التفسيري . ومما يجدر ذكره ، هنا ، ان رسالات مورغان اتسع جمهور قرائها عندما نشر ، سنة ١٨٨٤ ، كتاب إنجلز : أصول العيلة ، والملكية ، والدولة . وفي الواقع أن انجلز توكأ على مورغان ، في كل ايضاحاته وبراهينه ، توكؤاً حثيثاً .

أما المنهجيات التي اقترحها مورغان ، فقد كان فيها ما يخدع الماركسيين ؛ اذ انها كانت قائمة على مبادىء النشوء والارتقاء ؛ تكشف عن بشرية تسير ، فارضة ارادتها في تزايد مستمر ، على الوسط الطبيعي ، وذلك بفضل سيطرة التقنيات المتنامية في تركيزها ، كما انها كانت تؤيد صحة سير كل المجتمعات على طرق « متوازية » نحو أهداف موحدة . وفوق هذا ، كان مورغان يخفض اعتباره لأهمية الأحداث الدينية ، وهذا ما ألغى ، على وجه الترجيح ، أسباب اصطدامه بالماركسيين . وأخيراً ، نعترف لمورغان بأنه أول باحث حاول أن يضع في منزلة الدليل الاحصائي ما كان آخرون سيسمونه

قواعد مادية للمجتمع أو فوقيات مجتمعية . وهكذا أكد مورغان ، وهو يحامي عن الوحدة الروحية في الانسان ، هذه الوحدة التي تستبطن كل التغيرات الشكلية ، ويحرك ، عن تصميم ودون أي احتياط ، طريقة المقارنة ، مستقطباً من المعلوم الى المجهول ، ومن المثبّت بالبرهان الى ما لا يخضع لبرهان ، أكد أن انتشار الحضارة متلاق من الزمان والمكان فارضاً ارتقاء غير محدود ، وغير قابل الرجوع الى الوراء . ولكن انتصار مورغان جاء في ما هو أبعد من التعاليل الكثيرة الغرور والقابلة التفتت بسهولة ، جاء في تأسيسه عرقية القرابة على أسس متينة . واذا وقعنا هناك على ارادة التعليل ، فذلك لأن العالم النظري لا يتخلى عن جهوده الواسعة في التمرس التنظيمي ؛ ولكن هذا لا يعصمه من التفسيرات الخاطئة ، أو المبالَغ في تناولها من وثائق صحيحة ، مثل ما نجد في المقتطفات الاحصائية من تاريخ الإيروكوا[1] . وليست اخطاؤه كلها تُنتقد على سوية واحدة : فلئن كان قد أفرط في ما يتناول ترجمة النظام الهاوايي [2] ، فان وضعه موضع التحقيق مجموعة

١ ـ هنود تمركزوا ، في ما مضى ، في الجنوب الشرقي من بحيرتي : ايريا وارنتاريو ، وألفوا اتحاداً عرف بـ « الامم الخمس » . وقد قاتل هذا الاتحاد الفرنسيين حتى سنة ١٧٠٠ ، مؤخراً زحفهم نحو الجنوب. (المترجم)

٢ ـ نسبة الى نموذج انفجار بركاني في جزر هاواي ، نجده في ايسلنده او في الاوفرنيه يتميز بأنه لا ينفث حمماً صوانيا ذائبا . (المترجم)

القرائن التي تلقي ضوءاً على الانتساب الى الأم لا يفسح مجالاً الا الى تعميات باحث أخضع بحثه لمقارنات بين الحديث والقديم غير مستحبة ، ولكنها قابلة الشرح والتفسير . ومن جهة أخرى فانه أول من أدخل نظاماً في حقل كان سيّباً ، وأول من حدد مبادىء الأساس وطرح المسائل الكبيرة ، معطياً اياها حلولاً أقل فائدة من السؤال المطروح . وما تزال عرقية القرابة حتى اليوم تلقي مسألة صيغت بسرعة ، يستخدم فيها الشكل بدلاً من المضمون ؛ فعندما تختفي علاقة القربى تنوب عنها مجموعة الصيغ التقنية ، التي هي مدفن الآثار الحقيقي ، وتشهد للحقيقة القديمة . وهكذا يحيا المعبّر على انقاض المعبّر عنه . وهكذا ايضاً ، نستطيع أن نعيد بناء التنظيمات المعتمدة الأم مصدر الانتساب . وقد رأى مورغان أن اللغة كانت أهم ما يجمع المعبّرات عن العرقية .

ولا بد لنا من ذكر بعض المؤلفين المقارنين ، الذين لم يبلغوا حدود شهرة مورغان ، ولا بلغ عدد قرائهم ما بلغه من الكثرة عدد قرائه ، مثل سكوديز ، تلميذ راتزيل ، وغولدينويزر ، وخاصة تيلور وفرازير المنتسبين إلى هذا الفوج من الكلاسيكيين الأوائل في مضمار البحاثة النظريين : فميزات مؤلفاتهم تحث على دراستها . وحصيلة ما جاء به ، في هذا العلم ، سومنير مين يبدو أنه ذو فائدة خاصة في كتاب معاصر لكتب باستيان

وباكوفين ، (١٨٦١) و « فجر تاريخ المؤسسات » ، (١٨٧٥) و « طلائع القانون والعادات » ، (١٨٨٣) هي ، حقاً ، كتب خلقت عرقية القانون .

اننا لا نجـــد فرنسيين بين مؤسسي ما عرف بعد حين بالانتروبولوجيا المجتمعية أو الثقافية ، بينما وجدنا كثيراً من الفرنسيين في عداد بحاثة ما قبل التاريخ والانتروبولوجيين . مع ذلك ، هناك أسماء يجب أن تُذكر هنا ، لأنها تذكر عادة في تاريخ السوسيولوجيا . وفي مقدمة من نذكر فريدريك لي بلاي ومدرسته ؛ لا لأن « مدرسة العلم الاجتماعي » أعارت انتباهها المجتمعات الخارجية ، منذ الدراسة التي تناول فيها لي بلاي أنصاف الرحّل في الأورال ، حتى كتاب « المجتمعات الافريقية » ١٨٩٤ لـ أ. دي بريفيل ، بل لأنها مع لي بلاي بدأت « الطريقة المونوغرافية » ، أي الإلمامة العامة من تاريخ وجغرافيا وأدب واجتماع ، والتي أطلقت عليها هذه التسميـــة بكثير من الأبهة لما كانت تتوسله من الإجابة عن أسئلة مفصّلة . وكانت فكرة لي بلاي ، على صحتها ، تقضي بأن يوضع الشيء الحقيقي في أقرب متناول ، وأن يتمثل للحس ، ولهذا كان يجب أن يحاط بشبكة من الأسئلة خالية من نقاط الضعف ، ومهذبة بصورة نظامية . وعلى هذا الاساس كانت تُعتمد « تصاميم التحقيق » كتلك التي قدمها أباتي تورفيل في رسالته

« تعبيرية الحوادث الاجتماعية » ، سنة ١٨٨٦ . ولقد كان لهذه المدرسة فائدة أخرى : فطريقتها اصبحت مشهورة وذات قيمة عامة حتى إزالة الفوارق بين المجتمعات البرية والمجتمعات المدنية : فهناك علم إنساني لا بل دعوة واسعة راحت تؤكد جدارتها العامة .

وعلى صعيد آخر ، طلع التاريخ ، وكأنه عقل متفتح مستقل عن الأحكام المسبقة المعلنة رسمياً ، فكان طلوعه هذا عملاً تجديدياً . فهذا فوستيل دي كولانج نظر الى فرنسا القديمة ، قدم العصور الرومانية المترامية الأبعاد ، وقام يهذب صنيعاً فيه من الأثرية والعرقية ، مجدداً نطاق الثقافة المادية ، معيراً أهمية إلى صلات القربى ، التي أساء فهمها ، ومدللاً بشأن الدين القائم وراء كل عمل اجتماعي ، مشيراً إلى العلاقة الكائنة بين المجتمع ووسطه الطبيعي ، فكان له ، قبل الحرف المعبّر ، تاريخ مضمونه لا يعتمد رواية الأحداث مرتكزاً له .

وأخيراً ، يجب أن نذكر ، بين المؤسسين المختصين حقاً بالعرقية ، قدامى رعاة منبر المتحف الطبيعي [1] الانتروبولوجي وتعاليم مدرسة الانتروبولوجيا التي أسسها بروكا ، قبل كل عالم

---

١ — «Muséum» اسم أطلق سنة ١٧٩٤ على مجموعات من النباتات ، في باريس ؛ وكان تأسيسه سنة ١٦٣٥ تحت اسم « بستان الملك » ؛ ثم استكمل بمعارض من التاريخ وبحديقة حيوانات . (المترجم)

بما قبل التاريخ وكل عالم انتروبولوجيا ، ممن نوّهنا بمؤلفاتهم في ما تقدم من الكلام ، الذين تعرضوا أيضاً لتحليل مختلف مظاهر البنيات المجتمعية . ولعل كاتريفاج ، وهامي ، وفيرنو كانوا أبعد رؤية في تحليل الإنسان ، كما أنهم عنوا بدراسة المجتمعات البشرية تحت مختلف مظاهرها . وفي سنة ١٨٨٢ ، ظهرت إلى الوجود « المجلة العرقية » بادارة هامي ، وإلى جانبها « المواد التي منها يتألف التاريخ البدائي وتاريخ الإنسان الطبيعي » لكارتيلاك ، سنة ١٨٦٤ ، و « مجلة الانتروبولوجيا » لبروكا ، سنة ١٨٧٢ . وهكذا كان في خدمة علم الانسان ثلاث أدوات تعنى به في سائر وجوهه على اختلافها . ولكن بول ريفيه في « ماهية العرقية » في دائرة المعارف الفرنسية (ص ٧٠٨) يعرض « الحاجة إلى مجابهة النتائج الحاصلة عن طرق مختلفة جداً ويتعرض لنوابغ هذا العلم ، ويتزعم الدعوة إلى صهر هذه الأدوات في واحدة ، فكانت « الانتروبولوجيا » مجلة رائعة بإدارة هامي ، وكارتيلاك ، وبول توبينار ، ثم م. بول و ر. فيرنو .

٣ ـ الحركية ونتاج تيلور : مقارنون ومذهبيون

١ ـ ادوار بورنيت تيلور . ـ عالم انكليزي عاش من ١٨٣٢ الى ١٩١٧ ، وشغل مكانة مميزة في تاريخ الفكر العرقي . وبما أنه كان لا يستطيع أن يكون في صف القائلين بالارتقاء

بالمقارنة ولا في صف القائلين بالدور الجماعي معبراً عن بنيات المؤسسة ، فقد نحا ، ومعه لوبوك ، وبيت — ريفيرس وكثير آخرون ، نحواً قسّم فيه الأحكام المسبقة الكلاسيكية مقيسة بدقة على تسلسل تشعباتهـــا . لذلك استخدم حد العلاقة وقابل بين الطبقات الثقافية ، المثالية ، يأخذ بعضها بجانب البعض الآخر ، كما استخدم المستودعات الجيولوجية القائمة في تسلسلها الزمني : وهذا نوع من علم الطبقــات أو المستويات الثقافية المتوقع استحداثه . ولم ينس أن يشير بنباهة إلى أهمية ما كان يجب أن نسميه النشوءالمتجدد : وهكذا يمكنالتعويض، في قلب الانسانية ، عن محاور انقطاع الذرية ، فبعض الجماعات يمكن أن يضعف من سائر الوجوه بعد أن يكون قــد بلــغ مستوى اجتماعياً رفيعاً ، وهذه هي حال البدائيين المعاصرين ، الذين ليسوا سوى حصيلة تلاش تناسلي في مجتمعات عرفت حالة أشرف وأعلى وهذا لم يمنع ، قطعاً ، أن يكون الخط العام في التطور البشري ، حسب تفكير تيلور ، قائماً في حركة التسلسل البنوي ، وبموجبها يشتد أو يضعف . ومع ذلك فليس تيلور مرتبطاً ارتباطاً أعمى بمبدأ التطورات المقارنة : فهو يعترف بأهمية التماسّ الثقافي والرسم في النشوء . ودون أن نقرر وضعه في صف الآخذين بنظرية الأرتقاء بالمقارنة ، نشير إلى أنه كثيراً ما بالغ في أهمية بعض حوادث التأثر بالأحتكاك والنقل ، وإلى

أنه لا يقدم مثلاً إلا مصدراً وحيداً لكل المعالم المختلفة في الشمال الأميركي .

أما المعترف به لتيلور ، دون جدال ، فكونه باحثاً متزناً يعتمد العقل ، ويعمل ملتزماً جانب التواضع المعرفي واحترام الذات ؛ وهذه صفات كبار مؤلفي التعاليل من مثل : « أبحاث في تاريخ الانسان القديم ونمو الحضارة » (لندن سنة ١٨٦٥)، ولوحاته الواسعة في « الثقافة البدائية » ، وهي أعمال يمكن أن نضيف اليها نوعاً من الانتروبولوجيا ، ظهرت سنة ١٨٨١ ، وغيرها من المقالات ذات الشأن . بيد أنه وإن كان قد لامس كل مظاهر حياة الشعوب القديمة الاجتماعية ، فان المعوّل عليه عنده ، العرقية الدينية وعرقية القرابة التي تناولها بعمق .

وتيلور مؤلف نظرية الحلولية الخيّرة التي عرّفها ديلافوس، في أفريقيا ، في ما بعد ، وحرك موضوعها : فكان « البدائي » الذي أوحى ، من خلال الاحلام ، بالتفوق على الطبيعة ؛ هذه الرؤى جسّدت لعينيه حقيقة هذا المافوق الطبيعة ، متمثلاً في أشخاص من عالم غير منظور ، عائشين وعاملين في مجرى مسرحية من عالم الاحلام . ولا يجوز أن تخفى علينا ردات الفعل العنيفة التي أثارتها الرسالة عند دوركهيم ، الذي كان يقدم عمل الايمان الديني على هذا « الحلم المزعج توحي به أرواح لا عقل لها » . ولكن هذا المخطط المستحدث بعيد عن ان يكون

مجموعة من الأخطاء ، ولا يجوز أن نقلل كثيراً من الدين الذي لتيلور على العرقية الدينية ، ديناً مسجلاً : لأن هذا العبقري هو ، بلا شك ، أول من لاحظ أن الاديان « البدائية » تتميز بجهل ، يكاد يكون عاماً ، لمبدأ وحدانية الإله ، ولوجود الآلهة الكبيرة .

أما حصيلة تيلور في عرقية القرابة فأقل شهرة ، ولكنها ، مع ذلك أكثر عمقاً . فعندما يكون المقتضى بالنسبة الى نظام الزواج ، المتبادل بين أبناء العم ، أو الزواج من ارملة الأخ المتوفى دون وريث ، أو المحرمات : كزوجة الأب وزوج الأم ، أو شراكة الرضاعة ، أو كل من يدخل في تعابير القرابة غير الدموية ، فهو صاحب شعور جديد ، هو شعور كلية الثقافة . وفي هذا المعنى حاول أن يضع الحوادث في نطاقها المجتمعي ، وأن يبحث عن تجديد مجموعات العلاقات في تنسيقها الوظيفي . وهو يضع طقس العبادة في موضعه من الأهمية ، ليشرح ممارسته ويعمّق البيئة ، محتسباً حساب الممنوعات في الصلات الخارجية ، ابتداء من انظمة الإقامة ، في محلة الأم أو في محلة الأب . وقد استحق تقديراً كبيراً لأنه أدخل الطريقة الإحصائية في درس العرقية ؛ غير أنه ، دون شك ، لم يكن يستخدمها غالباً ، مع تحفظ كاف ؛ ولكن هذا ليس الأساس . فالأساس أنه كثيراً ما جعل من هذه المواد عملاً تجديدياً : فهو الذي حدد

وسمّى ما عُرف بتسمية الانسان لا حسب اسمه ، ولكن حسب علاقته الأهلية : كأن يتسمى الوالد لا باسمه الشخصي بل بوصفه أباً لابن ، فننادي سعيداً وهو أب لعامر ، مثــلاً ، « يا أبا عامر [1] » . وفي هذا النطاق من البحث حاول أن يضع هذه العلاقة موضع الاستعمال الى جانب محلة اقامــة الأم ، ومحرم المصاهرة .

لقد بنى تيلور نظرياته مُعيداً بناء البراهين التي ينسبها الى « الانسان البدائي » . فترجم الأساطير الوثنية بدقة كأنهــا ترجمة لأحداث الطبيعة ، التي يجب أن يعلل أسباب حدوثها لعيني « الفيلسوف البدائي » ناقلاً نواميس الطبيعة ليضعهــا في نظام من صنيع الخيال . تلك هــي « الحياة اليومية » في عالم الأسطورة الوثنية : كل شيء يبتدىء من الحقيقة . وعمل تيلور الايضاحي ، الذي يتناول الفكرة السحرية والدينية ، ليس إلا عقلانية غير الــتي نعرفها . وهكذا بقي اسم تيلور متصلاً بنظرية الحلولية الخيّرة ، ولكن هذه الحلولية ليست غير نقطة الانطلاق في محاولة جليلة للبناء التجديدي ، وهــــذا هو كل التوسع في الديانة التي يحاول إعادة رسمها . ويمكننا أن نضع الخطوط الكبرى لهيكل ذلك البناء في أربعة اقتراحات :

ـــ أولاً ـــ اكتشاف الروح وليد النعاس والموت . ونتيجة

---

١ ـ هذا النوع من التسمية يقال له في العربية : الكنية . (المترجم)

لمراقبة هذه النواميس ، استخلص الإنسان أن الكائن البشري مؤلف من جسد منظور ، ومن روح غير منظورة ؛

ـ ثانياً ـ مبدأ الازدواج جاء نتيجة لتجربة الحلم . فالمشاهد « المعاشة » ومسرحيات الأحلام تري أن الإنسان يستطيع ، في منامه ، أن يعمل ، وأن ينتقل ، وأن يستطرد الى حياة غير منظورة ، ولكنها حقيقية . فالروح متحركة ؛ وهي التي تكوّن ازدواج الكائن البشري ؛

ـ ثالثاً ـ إن كل الكائنات الحية تملك روحاً حية . فالروح ، في ازدواجيتها مع الجسد ، لا تميز الإنسان فقط ؛ فالحيوانات أيضاً تحيا الأحلام ؛ وهناك في الطبيعة حياة عامة تحييها . والأشياء التي نظنها غير حية هي ، في حقيقتها تحمل حياة غير منظورة ؛ والتحف الطقسية الموغلة في القِدم ، المحيطة بالميت ، من أشيائه العائلية ، تثبت هذا الواقع ؛

ـ رابعاً ـ إن أرواح بعض الناس ، من ذوي الأمجاد والسلطة ، لهم أهمية خاصة . والأسلاف يستطيعون ، بعد موتهم أن يؤثروا على الأخلاف ؛ فكانت أرواح الرؤساء ، والكهنة والأبطال ، ذات سلطة دائمة ، وهكذا اعتاد الغائشون بعدهم أن يقيموا لهم طقساً دينياً يخصّون به تلك الأرواح القادرة ، المزعوم أنها تستطيع حمايتهم أو إلحاق الضرر بهم ؛ وهذه هي ديانة الأرواح المؤلهة . وليس احترام القديسين في

الكنائس المسيحية غير نوع من ديانة الأرواح المؤلهة .

والأرواح التي تحيي الطبيعة تحمل على الاعتقاد بأنها تستطيع أن تحل في الأشياء ، والحيوانات والأشخاص . وهذه الطاقة الفاعلة تفسّر حوادث السكنى ، الكثيرة الحدوث في الزمن القديم . وهذا ما يجيز لنا القول أن « الفاشيستية » حالة خاصة من حالات الحلول ، ولكنها هامة جداً : لأنها تعني حلول الروح في الشيء المادي . غير أن تيلور لم يذهب مذهب المعتقدين أن هذه الحالة هي دين ، كما أعتقد كونت ، ولكنها ظاهرة بسيطة من مخلفات المتقدات البدائية . ومن جهة أخرى نرى أن تيلور يميز بين وحي الروح المادي المؤقت وهو غير وحي الروح الدائم ؛ وهذا الوحي الدائم يتجسد صنماً يتميز بتدخل الإنسان في الشيء : وهكذا صور الإنسان ، ونحت ، وحفر ، ونصب الشيء عارياً أو مكسواً ليجعل منه نوعاً من صورة الروح .

وتأثراً بهذه الحلولية كان لأرواح الطبيعة ، شيئاً فشيئاً ، أن جسدت آلهة وخص كل منها بشأن من شؤون الحياة على كثرتها . ذلك لأن تفكير الإنسان مايز الأرواح تبعاً لكفاءاتهم ، فانتهى الى تعدد الآلهة مصنفة بالأستناد الى نواميس الطبيعة : فكان للبحر إله ، وللسماء إله ، وللمياه إله ، الخ . ومن هنا ، جاءت روحانية الآلهة المتعددة فانتهت إلى استيلاد

الآلهة : فصار للحرب إله وللسلم إله ، وكذلك للخير والشر ، والحب ، الخ . وانطلاقاً من مرحلة النمو هذه ، وخاصة بعد هذا التخصيص الفكري القائم ، مثلاً ، بين إلهي الخير والشر ، استطاع التوحيد أن يثبت نفسه : ففكرة وحدانيـــة الإله الأعلى تتويج للفكر الإنساني على الأرض ، وهي من صنـع الإنسان وليست إيحاء إلهياً .

ويبدو لنا أن أحد مظاهر أثر تيلور، الأكثر أصالة والأكثر أهمية ، هو جهده الممعن في سبقه عصره عندما يقدر قيمـــة براهينه بالنسبة الى موضوعه . فكان يرغب في تحقيق نوع من الإحصاء الإجتماعي تبرز معه الاحتمالات، التي هي هدف البحث. فهو إذاً قد حاول أن يمثل بالأرقام ، المعطيات العرقية للتمكن من وضعها في مقارنة بشكل أفضل . وقد أقـام لهذا الغرض معرضاً واسعاً حمل إليه مختلف الأحداث المنتقاة في الأدب ، وهي أحداث تشتمل على ثلاث مئة شعب . وبهذه الطريقة أراد أن يثبت وجود دليل احصائي بين تسمية الكنية وبين الانتساب الى محلّة الأم . وهذا كان حقاً طريقة عملية لشأن علمي ، وهي ما تزال معتمدة حتى اليوم ، ولكن تحت أشـكال أخرى . واننا لا نجد اختلافاً جذرياً بين النهج الذي اعتمده تيلور وبين الأشغال الحديثة التي يقوم بها موردوك في « البنية المجتمعية » .

٢ - قبل تيلور وبعده . — يُعنى عدد كبير من المؤلفين ،

في هذا العصر ، بتفسير الفكرة الدينية . وأكثر المؤلفين الذين سنمر بعرض لمجمل تفكيرهم ، كانوا مقارنين ونظريين أكثر منهم واقعيين ، على العكس من تيلور ، الذي كانت حصيلة أبحاثه محسوسة ، على الرغم من أنه لم يكن باحثاً في حقل خاص . غير أن هذا الترافد في الجهود يفسر ، دون شك ، بأنه حدث تعويضي : فقد مضت أجيال ، وكل تفسير لوقائع دينية لم يكن ممكناً . أما اليوم ، ففي مجرى التعاليم ، التي توحي بالثقة الكاملة بالعلم وتكاثر النظريات النشوئية ، تولد ميل يهدف الى تحويل كل ما هو فوق الطبيعة الى حدود الطبيعة ، من خلال تفسير « الإنسان الديني » . إذاً ، الى هذا المختبر المجتمعي ، الذي يسهل المهمة ، والذي قدمته لنا المجتمعات « البدائية » ، جاء كثير من الباحثين يحاولون جهدهم في التحليل . هذه المجتمعات التي تبدو أنها تمحو الزمان وتعيد الى مختلف النواميس نقاوتها أو بساطتها الأصيلة . ففي خارج النطاق الذي جال فيه تيلور ، ودوركهيم الذي سنعطي صورة عنه في ما يلي ، نذكر ماكس ميللر ، وأندرولنغ ، وجيفون ، وسبينسر ، وماريت ، وبعض الباحثين في الأساطير الدينية مثل ك. ابراهام ، وأوتو رنك ، وخاصة فرازير ، الذي تميزت تآليفه بعدد كبير من القراء والمعجبين والذي سقط اليوم عن ذلك المرتفع الذي بلغه ، ولكننا نقر له بأنه أفضل من يرمز الى هذه الطريقة

من البحث ، وهي البحث داخل المكتب .

إن تأليه الأرواح الذي قال به سبنسر يبدو أنه ثمرة أفكار تغذت تباعاً ، ابتداء من مجتمعات العصور القديمة الكلاسيكية والمجتمعات البدائية ؛ وهو يتجاوز الحد في البساطة عندما يريد أن يجري تقويماً لمركبات الحوادث . لكن التفسير الذي اقترحه ماكس موللر أكثر وضوحاً في خطوطه الكبرى : فالخلط بين الاشياء يجب ان تكون له حدود ؛ وليس في الامكان إعادة بناء الانظمة الدينية بشكل هندسي ابتداء من هذه القواعد الضيقة . ومذهب الأخذ بمبادىء الطبيعة ، الذي اتبعه موللر ، وكوهن ، وشوادتز وعلماء الأساطير الدينية الألمان ، يبتدىء بفكرة ان الدين ولد من تشخيص قوى الطبيعة ، ومنها انتقل الى الكائنات الحية ، التي أصبحت الآلهة الأول ، على حد ما جاء في « المقارنة الميثولوجية » لماكس موللر ، سنة ١٨٥٦ . أما مذهب الطبيعة ، كما أوضحه اندرولنغ في كتابيه : « إنسان الدين » ١٨٩٨ ، و«السحر والدين» سنة ١٩٠١ ، فهو أوضح دلالة وأقرب الى الصدق . وأما لانج فيوضح بقوة أهمية النطاق المدرسي ويحاول أن يثبت كيفية استمداد ما فوق الطبيعة من الطبيعة ، استمداداً يتولد من حدود البيئة جغرافياً وبيولوجياً .

ويتميز ماريت بفكر غني متشبع بفهم الموضوع ، كما يشهد

له بهذا كتاباه : « عتبة الدين » ١٩٠٩ ، و « علم النفس والفولكلور » ، ١٩١٠ . فالحركية التي يقترحها ترتكز على مصدر السببية وعنصرها الفاعل ، الذي يختلف عن الحركية في نواميس الطبيعة . فنراه ، في هذا الاطار من المعنى ينسب الدور الأهم في سببية الفكرة الدينية ، لا الى الارواح المشخصة بالصورة الملائمة ، ولكن الى قوى غير شخصية ، مثلاً : الإعصار لا تسكنه روح ، ولكنه حي بنفسه . ويبدو ، من جهة ثانية ، ان مبدأ القول بـ « ما فوق الطبيعة » يوجب ان يكون الروحي في متناول الطبيعة ثم يجد لنفسه ان ينطلق منها ، وأن ما فوق الطبيعة مشروط بالطبيعة : فالأرواح والآلهة خلائق الإنسان ، أحدثتها ضرورة تأسيس نظام اجتماعي على عناصر يُفترض فيها ان تتجاوز طاقة الإنسان . والبدائي لا يميز بين نظامين مختلفَي الطبيعة ، الطبيعة واللاطبيعة : فهو أمام مجموعتين من النواميس التي لا تتحول احداها الى الأخرى ، فيخالجه الشعور بما يتجاوز حدود الطبيعة ، والذي يبقى طبيعياً بحد ذاته .

نحن ، اليوم ، في عهد أصبحت فيه نظرية السببية مثبتة ابتداء من الوثائق الاوقيانوسية . فقد وجدت السببية في كل المجتمعات : فالعرب يعبّرون عن حلول النعمة الإلهية بكلمة « بركة » ، وقدامى سكان اميركا الشمالية تركوا لنا كلمة

« أورندا » ، وسكان جزيرة مدغشقر يستعملون كلمة «هازينا» دون أن تجري التحاليل الضرورية لمعرفة التلاؤم الكائن في هذه العناصر المختلفة . فالسببية تعني قوة لا تتغير ولا تتحول ، ولا تتمثل في شكل ، قوة ذائبة في الكون ،حاضرة في كل الكائنات، ومنها ما يسميه الغربيون « الأشياء » ، انها قادرة على ان تستقطب السلب والايجاب ؛ والسببيـــة تكشف عن المظهرين المختلفين في المفهوم المقدس : فيمكن ان يكون اليوم يوم فرح أو يوم حزن . وهذا المبدأ سيتناوله كثير من المؤلفين .

٣ ـ تأليف فرازير . ـلقد دفع فرازير التنظيمية والقرانية الى اقصى حدودهما . وشهرته العريضة والدوي الذي أفاذت منه في المـــاضي ، يتناقضان ، اليوم ؛، والإعراض الذي تصادفه مؤلفاته . وفي هذه المؤلفات الضخمة يمكننا أن نأخـذ بعين الاعتبار ، ثلاث مجموعات ، لا يدخل في عدادها مقالات أو اتصالات لم توضع في مجلدات من مثل :

أعمال ترجمة ، وتفسير ، وموسوعية تتنـاول العصور القديمة الكلاسيكية : بوزانياس[١] ، (٦ مجـــلدات ، سنة ١٨٩٨) وفـــاستي دوفيد[٢] (٥ مجلدات سنة ١٩٢٩) .

---

١ ـ جغرافي يوناني من القرن الثاني ب. م. ، مؤلف وصف اليونان . (المترجم)

٢ ـ قصيدة ميثولوجية بين ٣ و ٨ ب. م. (المترجم)

ولقد كان بالإمكان ان ينخدع العرقيون ويعتقدون ان المقصود مظهر ثانوي لفكرة فرازير ، سواء أكانوا من اللاتين أو اليونان . ولكن هذه الأعمال ، على العكس ، تشتمل على تعليمات عرقية ، ستأخذ مكانها في الحصائل النهائية التي توفرت لفرازير ، والتي نجد فيها شخصياً توطئات الأبحاث ، وهي تمهيدات يجب ان نتناولها يوماً ما في عرقية المجتمعات القديمة .

ـ الأعمال المخصصة لدرس بعض المسائل مثل : « القربى بالاستناد الى المشابهة » و « الزواج من غير بنات القبيلة » (المجلد الرابع ١٩١٠) ، وهو مؤلَّف قائم على نظرية طابع القربى الدال على الوحدات الدموية ، والايمان بالخلود وعبادة الأموات (المجلد الثالث ١٩١٣ ـ ١٩٢٤) ، والفولكلور في العهد القديم (المجلد الثالث ١٩١٨) ؛ وفي هذا الكتاب الأخير يضع فرازير وثائق الكتاب المقدس في موازنة مع اساطير الوثنية في عصور الشرق الادنى القديمة .

ـ وأخيراً ، الكتاب الكبير « التطور التسلسلي في الفرع الذهبي » وهو مؤلف قيل فيه : انه اتخذ ملامح الملحمة المتجهمة الاجواء . وبلغت الطبعة التي صدرت سنة ١٩١٥ اثني عشر مجلداً ، اذ جاءت عرضاً ضخماً فخماً ، في طواعية أدبية الصيغة يتضمن سبعة أقسام : أ ـ صناعة السحر وهي نظرية السحر والدين ، ب ـ طوابع القربى ومخاطر الروح ، وهي تحليل

الازدواج أو مبدأ الحياة في الانسان ، وهذا ما عناه تيلور في كلمة «روح »، ودرس معنى المنوعات ، التي وظيفتها تقوم في حماية مبدأ الحياة، ج ـ الإله المائت ، عنوان لتفسير اعـدام الرئيس أو الامير الذي أمسى مريضاً ، أو ضعيفاً ، أو هرماً ، د ـ أدونيس ، وأتيس ، وأوزيريس ، وهـذا تفسير للسحر الزراعي ، هـ ـ أرواح السهوب والقمح ، وهو قسم مماثل سابقه بعض المماثلة ، و ـ التيس المتهم الطريد[1] تفسير لحذف الرئيس باعتباره « المسؤول » الوحيد عن « الشر » الذي لحق بشعبـه ، ز ـ «بالدير» المتألق، وهو عرض جديد لإله السكاندينافيـين كما تمثله الأسطورة ، وتفسير عام لما تعنيه ميثولوجيا الفرع الذهبي.

وكان أن ظهور رسائل فرازير في شكل عرض زاهـي الألوان في ملامح ملحمية ، أضرها ضرراً جسيمـاً ، في عُرف العلماء الرسميين ، في حين أن ظهورها كذلك ضمن لهـا قراء ومعجبين كثيرين من عامة الشعب . نستثني من هذه الرسائـل نظرية الطقس الديني الذي يقضي بإعدام الملك المؤله ، وبصورة أعم ، تحاليل الرمز ، وأبرز عناصر تفكير فرازير المتنـاولة تفسير السحر ، والدين، والقربى بالاستناد الى المشابهة ، والزواج بغير بنات القبيلة ذاتها .

والسحر مجموعة وسائل تستخدم لتأمين سلطة الانسان على العالم ؛ وهو معرفة المستقبل « التبصير » التي تطبق مبادئهـا

---

١ ـ يعني التيس البري الذي كان قدامى اليهود يطاردونه ليقتلوه لأنه سبب كل مصائبهم . (المترجم)

العامة . وقد أعطى فرازير نص قانون التلاحق النوعي ، ونص قانون التماس ، اللذين يؤسسان السحر التجاذبي . والساحر انسان مسلط : يستطيع ، بفنه المتحرك ، ان يفرض سلطته على الأرواح والدين . على العكس ، يلتمس السيطرة من الارواح ، التي يقدر الانسان وحده ان يهدئها ، ويغريها أو يلتمس منها . وهذا الاعتبار المختص بالدين أغنى مما قدّر له فرازير بكثير ، على الرغم من انه غير كاف ، وخاصة في ما يتعلق بطبيعة الحادث الديني أو بمعناه . لأن الدين يؤسس العلاقة الواصلة ما بين الانسان والإله . وكان فرازير يعتبر ، من جهة أخرى ، ان السحر جاء سابقاً الفكرة الدينية .

أما في ما يتعلق بالقربى بالاستناد الى المشابهة ، التي كانت مبدءاً ارتكازياً من مبادىء العرقية ، فان وضعية فرازير تغيرت كثيراً . والتحديد الذي أعطي لها جاء صحيحاً : فالقربى بالاستناد الى المشابهة تفترض ، حقيقة سابقة ، علاقة المماثلة بين جماعة من الناس الاقرباء من جهة ، وبين جماعة من الحيوانات من جهة أخرى ، أو جماعة من النبات أو الاشياء . فقد افترض أولاً أن الكائن القريب بالمشابهة ، ذا الوظيفة الحامية الكثيرة الوضوح ، كان قوة ملجئية عهد اليها الانسان بروحه الحية ، لتضعها في حمايتها . ثم ان فرازير انتقى ، وهو متأثر باكتشافات سبنسر وجيلين ، تفسيراً اقتصادياً كل عشيرة من العشائر التي تتألف منها القبيلة ، مجبراً ذاته على أن يغذي

بالتعظيم حياة النوع الذي احتسب منه ، بصورة تضمن استمرار الأغذية .

وأخيراً ، هذا تفسير ثالث يقف عنده ؛ منطلقاً من مبدأ أولي هو أن الإنسان البدائي كان يجهل آليـــة الاستيلاد الفيزيولوجي ، وأن الأمم كانت تصل الاحساس الأول بوجود الجنين في أحشائها بـ « الشعور » الذي أحزنها ، شعور جاءها من حيوان (من نبات أو شيء) ، لقد فكر ان التمثيل الحيواني كان الروح الحية في هذا الحيوان (أو النبات أو الشيء) عينها ، وقد اخترقت جسد المرأة لتخصبه . ولكن تفسير مبدأ الزواج من غير بنات القبيلة موضوع سبق إليه مورغان ، منطلقاً من مبدأ أولي آخر أساسي ، هو مبدأ الاحتكاك الجنسي البدائي : فالإجبار على اتخاذ القرين خارج الجماعة جاء تفسيراً للرغبة في الخروج من الحرية المخترقة حدود الاحترام، ولتأسيس المستند القياسي الذي يحرم في مقدمـة محرّماته إمكانية القران بين ذوي القربى من الوجه الأول « الدرجة الأولى » ؛ وهذا ما دعا الى نظام « أخلاقي » استئصالاً لهذا المحظور .

غير أن هذا الأثر التأليفي الضخم ، الذي تركه فرازير ، يعاني اليوم ، على حد قول مالينوفسكي ، هبوطاً كبيراً في قيمته . فنحن نؤكد ان مؤلفه لم يجر قط تحقيقاً ، حتى أننـا نذهب في القول الى حدود الجزم في أنه لم يلق واحـــداً من

الشعوب التي أقر لها بوجودها . وهذا لم يكن ناتجاً عن اهتمام براحته الجسدية ، لأنه ما من شك في ان فرازير كان ذا عيش مثقل بالتقشف على الرغم من وجوده المبطّن بالنعمة ، كما كان مستعبداً لأعمال بحث وتنقيب لا تنتهي ، يقوم بها في قراءات صابرة في سبع او ثماني لغات . وفي كلام أبسط ، لم يفسح لنفسه مرة ليذهب بنفسه الى حقل العمل ، او على الأخص ، لم يبد انه شعر مرة بضرورة هذا الذهاب . مع العلم ان الاكتفاء بالمراسلات استناداً الى اسئلة وردت في ما تقدم ، كان يوفر له ، في بعض ساعات على حد زعمه ، ما لا يتوفر له في اشهر كثيرة لا بل في سنين من الجري وراء التحقيق العملي . وهكذا فعل دوركهيم وموس اللذان أنفا من السعي الى التحقيق في حقل الاختبار .

اما اذا كنا نريد ان نقع على السبب الرئيسي لهذا الفراغ الذي أسقط فيه معلم كمبريدج العجوز ، فانه قائم وراء العملقة التي بالغ المعلم في تضخيمها ، والهندسة التي أفرط في تركيزها على صعيد مفاهيم سابقة التصميم تقتحم جو القارىء اقتحاماً جريئاً . لقد كان فرازير رجل التعليل ، كما كان دائم الرغبة في ان يقوم بتجديدات بنيوية عظيمة ، مستخدماً في صنيعه هذا ، لسوء الحظ ، مواد وأساليب قابلة التفتت بسهولة . ويبدو مجمل العمل الفرازيري ذا مضمون مكثف ، يصعب تقدير هذا القسم منه

أو ذاك تقديراً صائباً . وهكذا يطالعنا المؤلف بعظمة «الفولكلور في العهد القديم» او ببعض مقاطع من «ارواح السهوب والقمح» ، او بـ «التيس المتهم الطريد» ، مطالعة غائمـــة لا نتبين فيها الوضوح العلمي . ولا بد هنا من التذكير بأن هيرسكوفيتس تعصّب ، من جهتـــه ، للقسم المتناول القربى بالاستناد الى المشابهة والزواج من بنات خارج القبيلة . ولكن الباحثين في هذه المتناولات ، بعد ان أعرضوا عن الاشتغال بالتعليل ، مدة ثلاثين سنة تقريباً ، تحولوا مجدداً باهتمامهم الى مجرى جديد . وعلى الرغم من الإعراض عن مؤلف « الفرع الذهبي » لاعتماده النهج الأدبي في تأليفه ، غير متخل عن اهتمامه بالنظام الجمالي ، فإنشاؤه ، في الغالب ، فخم الصياغة مصنّع . ومن واجب المقدر العادل ان يعترف بأن الارتقاء التطوري البادي الملامح البسيطة ، والإلماعات المتطرفة ، والمقارنات المغامرة ، التي تتخلل تأليف فرازير ، كلها تحمل على الاعتقاد بأن تاريخ الفكر العرقي لا بد من ان يردّ لهذا المؤلف مكانته التي استحقها في ما مضى . وهذا ما فعله هؤلاء العلماء : ماريت ، وسبنسر ، وجيلين ، وهادون ، وريفير ، وراتراي ، ومالينوفسكي ، إذ قدروا له بحثه الموسوعي ونباهته كمقارن مكتبيّ . ومما يجدر ذكره ، بصورة دامغة ، ان فرازير ، نموذج العالم المكتبي ، عمل في الأجمات الموغلة في الزمان حيث تراكم الأشخاص ،

أجمات من الرواد الممهدين للعرقية الاوسترالية ، والافريقية ، والاوقيانية . وهوذا مالينوفسكي يذكر : فيزون ، وهويت ، رسبنسر وجيلين ، وهادون ، وريفير ، وساليغمن ، وميثير ، وجونود ، وروسكو ، وراتراي ، وويسترمارك ، وتورنوالد ، كتأثرين مباشرة بعرقية فرازير في ما حاولوا وما تركوا في هذا الموضوع . ويرى هيرسكوفيتس ان مدرسة السوسيولوجيا الفرنسية نفسها مدينة ، في هذا الصدد ، لفرازيز ، حتى أن بعضاً ممن انتقدوه كثيراً ، مثل أندرو لنغ ، مدينون له ايضاً. كما يؤكد أن الدرس الذي أعطاه فرازير إستخدم في فلسفة التاريخ .

٤ ـ **العرقية في ميدانها** . — البحث المباشر المنفّذ على الأرض المعنية بالدرس له ، دون شك ، عناوين شرف قديمة . ولا حاجة بنا الى العودة بعيداً في الماضي ، بل نكتفي بذكر القرن السادس عشر ، متناولين فيه الهندوأميركيين في البرازيل ، والتحقيقات العلمية التي قام بها هانس ستادين ، وجان دي ليري ، وجوزيف دي أنشياتا ، وغبريال سواريس دي سوزا . فالأولان من هؤلاء ، صاغ كل منهما على حدة ، وفي وقت واحد تقريباً ، التفسير الأول لعرقية الانتروبولوجيا . وفي هذه المناسبة ، التي تناولت قبيلة توبينمبا ، بقي ستادين سجيناً فيها مدة تسعة أشهر ؛ فجاء عمله هذا أول اختصاص بالوصف العرقي المتناول

قبيلة واحدة هندواميركية .

ولكن ، كما سبقت الاشارة في مجرى الفصول السابقة ، كانت أعمال الرحالة سابقة عرقية ، أو ظاهرة عرقيـــة ؛ إذ كان يجب أن ننتظر نهاية القرن التاسع عشر ، حـــتى نرى اختصاصيين يفضّلون الأجمات المترامية الأطراف أرضاً للبحث على مقاعد المكتبات يقلبون صفحاتها . وقبل هؤلاء الاختصاصيين ، كان لبعض الرحالة ، ولبعض أفراد البعثات التبشيرية ، فضـل القيام بأعمال كشفية ثقافية هامة ، منها مجموعـــة ثمينة في مدغشقر ؛ وفي الباسيفيكي تعرف المستكشف الروسي ، ن. ن. ميكلو كهو ـ ما كلايي ، الساحل الشمالي الشرقي من غينيـــا الجديدة ، ومختلف مجموعات من الارخبيلات ، فنشر علاقاتـه هذه في خمس مجلدات مجهزة بصورة دقيقة ، وطلع بأشياء كثيرة العدد كبيرة القيمة . وفي غمر الاوقيانوس قام كودرنغتون بأعماله ، وأصدر ، في سنة ١٨٩١ ، كتابـــه « الملانيزيانيون ، دراسات في انتروبولوجيتهم وفولكلورهم » ، كما أن هادّون حل في ميلانيزيا وفي اندونيسيا على رأس بعثـــة اشترك فيها سيليغان وريفير ، وإصدروا كتابهم : « الفن التزييني في غينيا الجديدة البريطانية » ١٨٩٤ ، وبعده « تطور الفن » ١٨٩٥ . وهادّون ايضاً ، نشر ، بعد بضع سنوات محاولة في التعليل ، « دراسة الانسان » ، سنة ١٨٩٨ . والأب ويرز نشر دراسة

مماثلة، سنة ١٩٢٢ . أما سيليغمان ، أحد رفاق هادّون في رحلته الاستكشافية الاوقيانوسية ، فانه حقق ، في ما بعد ، خير ما جاء في نتاجه ، في افريقيا . وفي السنوات الأولى من القرن العشرين نشر سبنسر وجيلين ابحاثهما الكلاسيكية المتناولة قبائل الشمال والوسط من اوستراليا .

وقد تمت في أميركا ، أعمال كثيرة ، ولكن في شكل غير منتظم . ويمكننا أن نسمي في البرازيل ، مثلاً ، سيلفيو روميرو ، الذي نشر كتابه « العرقية المتوحشة » ، سنة ١٨٧٦ ؛ وفي سنة ١٨٧٦ بدأت سلسلة مؤلفات ، كان البادىء فيها كونتو دي ماغالهايس ، بتأثير من لي بلاي ، وسبنسر ، في الكتب التالية : « المجتمع البرازيلي المتوحش» و «العرقية البرازيلية المتوحشة » ، وفي سنة ١٩٠٠ ، نشرت نينا رودريك ، بالفرنسية ، دراسة في الحلولية الفاشيستية عند السود الباهيين . وفي سنة ١٩٣٠ ، بدأ جيلبيرتو فريير نشر أبرز مؤلفاته ؛ فكان كتابه « البيت الكبير وضوضاؤه » موضوع تقدير فور صدوره ، سنة ١٩٣٣ ، فترجم الى الفرنسية سنة ١٩٥٢، تحت عنوان : « أسياد وعبيد». وكان جيلبيرتو عالماً في السوسيولوجيا فأدخل هذا العلم ، سنة ١٩٢٦ ، مدينة ريسيف ليدرّس فيها .

ويجب ان نقف هنا عند هذه الشواهد : فقد تكاثرت التحقيقات ، التي نحن مدينون بها لباحثين كانوا ذوي ثقافات

مختلفة . ولا نرى بداً من أن نذكر باحثين مشهوداً لهم بالاختبار الشخصي ، في هذا الميدان ، من اواخر القرن التاسع عشر ، منهم مورغان وتيلور . أما الأسماء الكبيرة التي أطلت في القرن العشرين : من بُواس الى لُوي ، ومن فروبينوس الى ويسلر ، الذين يُحسبون كلهم في عداد الباحثين الاختباريين ، وسنلتقي بهم في الصفحات التالية ، فكتبهم تدرس ضمن إطار الوصف المركز على قاعدة ، حيث نصنفها في الارتقاء بالمقارنة أو في الارتقاء بالدور الجماعي ، الخ . وعلى الرغم من اعتمادنا التصنيف ، فان بعضاً من المؤلفات الكبيرة يبقى ممتنعاً بصلابته فلا يدخل في تصنيف معين ، ولكنه سيبقى في متناولنا للإلمامة به ، أو على الاقل للاشارة اليه ، كمؤلفات روبيرتسون سميث ، و وستيرمارك ، وريفيرس ، وكروبير ، ورادكليف – براوون .

غير أن هذه الوجوه المتألقة في العرقية لا تجمع هنا بمألوف من العرض البحثي . فهي في حقيقة أمرها ، لا نستطيع ، دون تعسف ، أن نربط سيرها بإحدى النزعات الكبيرة ، أو بأحد الجملات التي هي موضوع الفقرات الأُخرى من الفصل الذي نحن فيه . ونحن اذا استثنينا ما يختص بكروبير أو رادكليف – براوون ، معاصرَينا اللذين لا اعتراض على قيمة حصيلتيهما ، تبدو أعمال الباحثين الثانويين متنامية المفهوم والتقدير في

أيامنا هذه .

ولقد ترك وليم روبيرتسون سميث ، المستشرق الانكليزي ، الذي مات مبكراً ، تراثاً غني المادة ، غنىً فاقت كثرته تقديرات معاصريه ومن جاء بعده من المشتغلين بهذا النحو من التأليف . ففي مجرى تحليل المجتمعات الاسلامية درس روبرتسون سميث بنيات القرابة ، والقرابة بالاستناد الى المشابهة ، كما درس الذبيحة المقدسة والطقس الديني . وقد جُمعت مؤلفاته ونشرت ، بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩٠ ؛ نذكر منها « الجماع والزواج في البيئة العربية » ١٨٨٥ ، وخاصة « دين الساميين » . ولروبيرتسون سميث توجيه فكري يوشك ان يكون معاصراً لنا ، مفرغ في أداء واضح ، على الغالب ، ناتج عن القدرة على الفهم أكثر منه على البرهان والتوضيح .

أما ادوار ويستيرمارك فهو فنلندي ـ أسوجي علّم مدة طويلة في لندن . ويقسم تأليفه الى نوعين من النصوص المفيدة ، غير متساويين في الأهمية ، فقد ألف أولاً محاولات في التعليل ، مسلسلاً ومنظماً وثائق متنوعة ، كما جاء في كتابه : « تاريخ الزواج البشري » ، سنة ١٨٩١ ، وكتابه الآخر « اصل الأفكار الخلقية وانتشارها » ، بين ١٩٠٥ و ١٩٠٨ . والى هذين المؤلفين أضاف إعادة لبناء تاريخ الحقوق ؛ ثم ألحقها ببحث مركّز على بعض المجتمعات الاسلامية ، في : « الطقوس

الدينية والمعتقد في مراكش »، سنة ١٩٢٦ ، و« المشركون في الحضارة المحمدية »، سنة ١٩٣٣ . وأما ويسترمارك فقد أضاف الى صفات العرض الكبيرة التي يملكها ، صفتي الوضوح والايجاز، كما أضاف الى قدرته على التعليل سذاجة عالم نظـري جذابـة ، عالم يفتش في الحقيقة عن تحقيقات لمسائله المطروحة . وبما أنـه أصيل الفكر لم يتردد في نبذ الافكار المقبولة إن لم يقرهـا : كالجوار البدائي يحدث الاصطدام الجنسي، وكأسبقية الانتساب الى الأم . وقد اعتقد انه قادر ، مع إلغاء التحفظ ، ان يفسر تحريم الجماع الجنسي بين الأقرباء الادنين باللامبالاة الجنسية التي يشعر بها الانسان تجاه ذوي القربى .

ونلم بريفيرس فنذكر أن حصيلته الأصيلة أقرب الى مفاهيم اليوم من سواها ، لأنه عمق نظرته التطورية في مجرى بحثه : أولاً في التجمع ثم في التحدر التناسلي . أما كروبير فهو منعزل في عمقه ، وعالم عرقي جامع المفيد من مراقباته وملاحظاتـه ، ولكنه جاء متأخراً في الزمن ، إذ وُلد سنة ١٨٧٦ ، في عالم متحول نحو الاختصاص . وإذا تناولنا حصيـلة رادكليف ـ براون استطعنا أن نعرضها تحت ثلاثة عناوين: اولاً مع مدرسة السوسيولوجيا الفرنسية ، التي كان يشعر دائماً أنه مدين لهـا ، ثانياً مع الارتقائيين المؤمنين بالدور الجماعي ، لأنه كان واحداً منهم ، ولكن على طريقتـه الخاصـة ، ثالثـاً مـع البنيويين

السيكولوجيين لأنه كان واحداً من الطليعة التي حددت المفهوم البنيوي ، ولكن في تعبير يرفضه المعاصرون من العلماء البنيويين ، لأنه كان يقول بالترادف في كلمتي : بنية (هيكل) وتنظيم ، ترادفاً تاماً . ولقد أُفيد من هذه النواحي الثلاث ، بأساليب مختلفة ، في تحليل مختصر لثقافات خاصة هي : الهندية الأميركية ، والاوسترالية ، والعندامانية[1] وكذلك في تعميق المبدأ الثقافي.

أما و. هـ. ريفيرس وهو ذو ثقافة طبية ، فإنه تخصص بعلم النفس والعرقية . وكان ذا توجيه قاعدي تطور في مجرى عطائه العلمي ، ومن المرجح ان هذا التطور جاء في أعقاب أبحاثه على الأرض المعنية بالدرس ، وخاصة في أوقيانيا . ومع أنه كان أولاً من القائلين بالأرتقاء التطوري ، مع تحفظه تجاه رسالات مورغان ، فقد اعتمد ، في ما بعد ، مفهوم الارتقاء بالمقارنة . ومن بحثه تولدت مؤلفات كثيرة ، منها : « التودا » ، سنة ١٩٠٦ ، و « تاريخ المجتمع الميلانيزي » ، سنة ١٩١٤ ، و « الجماع والتنظيم الاجتماعي » ، سنة ١٩١٤ ، و « الخصام والرؤيا » ، سنة ١٩٢٣ . ومن جهة ثانية فقد ألّف محاولة في تعليل التاريخ الثقافي : « نمو الحضارة » سنة ١٩٢٤ . وعلاوة على ماتقدم فانه أدار تأليفاً جماعياً يتناول العرقية من خلال تكاثف السكان على

---

١ ـ نسبة الى جزر في خليج البنغال . (المترجم) .

المكان الواحد الميلانيزي [1] ، حيث يستبق الكلام على التفسير السيكولوجي، هو « محاولات في تخفيف كثافة سكان ميلانيزيا»، سنة ١٩٢٢ ، . وفي المرحلة الاخيرة من عمره الطويل ، وفيما هو يتابع تطور فكره منطقياً ، تحول بتفكيره نحو الارتقاء بالمقارنة في بلدان متعددة ، ولكن هذا التحول ، في مجرى عمل تأليفي معقد ومثير ، ليس الا حدثاً عادياً . وهكذا يبقى ان نقول : ان غنى حصيلة ريفيرس يزداد بروزه اليوم ، لأنه أخذ بأهمية التفسير السيكولوجي ، الذي كان يحاربه دوركهيم ورادكليف-برون من بعده ، ولأنه أشار بشدة الى الأبعاد الزمنية التاريخية وتأثيرها في الأحداث الاجتماعية ، ولأنه عمل لتقدم الأبحاث البنيوية في القرابة ، كإيجازه ، مثلاً ، نظرية الازدواجية ، كما كان واحداً من الباحثين الذين فهموا الطاقة التي يستطيع ان يوفرها علم التحليل النفساني إذا أحسن تطبيقه في التحقيق العرقي .

وأما أ. ل. كروبير ، (١٨٧٦ - ١٩٦٠) فانه بعد أن اشتغل ، ردحاً من الزمن ، بالاشتراك مع بواس ، استقر في كاليفورنيا ، وفيها أنفق كل نشاطه العملي في مهمته استاذاً في

---

١ - هذا الاسم معناه « جزر السود » وهي قسم من اوقيانيا يشتمل على غينيا الجديدة ، زارخبيل بسمارك ، وجزر سليمان ، وكاليدونيا الجديدة، والهيبريد الجديدة وغيرها من الجزر . (المترجم) .

متحف الانتروبولوجيا ومديراً له . وفي مجرى حياته الطويلة ، المليئة بالعمل ، والمحافظة على الواجب الفكري ، تقاسمته نزعتان: نزعة أبحاثه العرقية التي كان حقلها المفضل كاليفورنيا ، ونزعة تجاربه في تهذيب تاريخ فكري عام . ولقد كان كروبير واحداً ممن جاء من علماء العرقية في متأخر زمانه ، كما كان واحداً من أعلامهم . وامتد جهده الى مختلف حقول العرقية الكلاسيكية . وهكذا جاء كتابه الرئيسي نتيجة سنين من التجارب والعمل الاختباري ، وجدولاً خالداً لستين قبيلة هندوامير كية ، عُرف بـ « دليل هنود كاليفورنيا » ، ونشر سنة ١٩٢٥ . وكان أن سبق هذا الدليل ، بسنتين ، كتاب في الأنتروبولوجيا ، أثبت فيه نظرية العضوية المتفوقة في المجتمع . أما على صعيد النهج المنطقي فقد كانت له مقالة في « حدود طريقة المقارنة في الانتروبولوجيا » ، سنة ١٩١٧ ، نالت نجاحاً باهراً ، وانتشرت انتشاراً واسعاً . ولم يجد صعوبة ليسجل ، في هذه المقالة ، أخطاء علماء الارتقاء التطوري الموحّدي الانتساب وتجاوزاتهم ، وإغارة البيولوجيا على الانتروبولوجيا، أي علم الأحياء على علم المفارقات في العوامل الفاعلة في البنيات المجتمعية . وابتداء من هناك أراد كروبير أن يجعل من « العضوي » مجتمعياً : فكان المتفوق العضوي ، كما جاء في في كتابَيه : « التفوق العضوي » ، و « الانتروبولوجي الأميركي » ، الجزء التاسع عشر ، سنة ١٩١٧ .

إن كروبير ، في مختلف أعماله ، وخاصة في التعليلين اللذين نشرهما حول النمط النسائي ، أراد بثبات ان يحقق ، انطلاقاً من الخاص الى العام، ومخضعاً ،في كل شيء ، الفردي للمجتمعي ويجب أن نعير اعتباراً خاصاً لأفكار كروبير في علم التحليل النفساني . فبعد أن بدا تحوله الى هـــذا النحو من التفسير ، ارتد عنه ، بعد أن أصبح مأخوذاً بهذا الاحتكام . ولعـــل ارتداده كان نتيجة أنه أصبح مجبراً على تعديل نظراتـــه الى أهمية التأثيرات الذاتية ، وإلى دور الشخصية الفردية . وجدير بالذكر أن نعرض هنا الى نقده القاسي الذي تناول بـــه كتاب « توتيم وتابو » لفرويد، مظهراً ان التحقيقات كانت غير مستندة، وأنها كانت تخلط علم النفس بالتاريخ ؛ ولكنه ، بعـد حـين ، ألـّف محاولة جديدة ، عاوده ، في معظمها ، بعـض الندم ، أسماها « توتيم وتابو في الميزان » ، وفصّل مآخذه ، معترفاً بأن قسماً من الأداة الفهمية التي حددها فرويد كان وسيبقى معتمداً عند علماء العرقية ، وخاصة مبادىء القمع، والتطور الارتدادي بعد معاناة ، والتعقد ، واستمرار الطفولة، وكذلك آلية رموز الاحلام ، وعقدة الذنب .

أما راديكليف ـ براون (١٨٨١ ـ ١٩٥٥) ، أحـــد قدامى أساتذة اوكسفورد ، فقد اشتغل في حقول كثيرة ، في الاوقيانوس الهندي ، وفي بولينيزيا ، وفي اوستراليـــا ، وفي

افريقيا . ولقد كان كتابه «عندامان إيسلندر » ، الصادر بين (١٩٠٦ - ١٩٠٨) ، والذي نوه به لووي ، كتابه الوحيد من نوع التحليل الثقافي ذي العلاقة المباشرة بالتحقيق على الأرض المعنية بالدراسة . غير أن مؤلفات راديكليف - براون لا تحسب في عداد أعمال المرحلة من الزمن التي ندرسها ، نستثني منها : « أخو الأم في جنوب افريقيا » ، و « جريدة جنوب افريقيا العلمية » سنة ١٩٢٤ . ولكننا نستسمح لذكر ثلاث نقاط . أولاً : كان راديكليف-براون محللاً ممتازاً ، إذ انه اكتشف نظام القرابة المعروف في اوستراليا ، منطلقاً بالطبع من أحداث مثبتة ، كما فهم أهمية اعادة تكوين الجماعات بصورة معللة ، على النحو البادي في « معاهدة القرابة المصغرة» الفريدة في نوعها ، علاوة على « البنية الاجتماعية » لموردوك ، وقد جعل من معاهدته المصغرة مدخلاً واضحاً الى « الانظمة العائلية والزواجية في افريقيا السوداء » . ثانياً : لقد كان دائماً يأمل أن يستطيع الوصول الى تصحيحات ، وتنظيمات ، أو بصورة أوضح الى « قوانين التطور » ، وهذا ما كان يثير سخرية لووي ، والصواب ، مثلا ، أن نسميها « قانون الطقس الديني » : ففي مجتمع معين تكييف العناصر المعتبرة أساسية للعائشين من الجماعة ، وذلك بغية ابراز قيمتهم وأهميتهم ، وبغية المحافظة على سلامتهم. ثالثاً وأخيراً : بعد مدة من الزمن،

حاول ان يعمق المفاهيم الكبرى ، المفترض فيهـــا أن تعطي حساباً عن التفاعل المجتمعي : بنية ووظيفة ؛ وعلى هـــذا الأساس نستطيـــع ان نقول ان بحث راديكليف ـ برون كان بنيوياً قبل ان يكون شكلياً .

٥ ـ ردة الفعل الأولى المضادة للارتقاء التطوري: بواس وعلماء الهيئة

من البديهي أن تنشأ ردة فعل تثبت وجودها في مجـــابهة الرعيل الأول من علماء الارتقاء التطوري ، بعد أن أسرفوا في نظامية التجديدات البنائية ، وفي بحثهم عن « قوانـــين » ﻟ « تطور » المجتمعات ، واعتُبرت أوضاعهم متطرفة ينبغـــي الوقوف في طريقها. وكانت هذه النزعة سليمة في اساسها وهدفها، عند لووي وبُواس وتلاميذهما. وكانت اول ما عنت أن نتجنب الخلط بين النظرية والواقع ، وألا نقوم بالتعليل قبل التحليل ، وأن نُعرِض عن البحث المتناول القيمة العامة الكائنة في مـــا لا يتغير ، وأن نشك في استطاعة وضع نواميس كونيـــة في حدود معينة . وقد طالب هؤلاء الباحثون بصرامة علميـــة لا خطل فيها ، وفهموا ان يكتفوا باعطاء حقائق ثابتة : مكتفين بأن يصفوا ، في تواضع ، التعقدات الثقافية، دون أن يحشروها في أي من الانظمة المهيأة سلفاً . وقد رأينا ان نطلق على هذه

النزعة صفة « علم الهيئة » ، لأنها تعمل على إبراز المتفـارقات قبل المتشابهات ، ولا طمع لها إلا أن تأخذ بعين الاعتبار تعدد أشكال التنظيم المجتمعي التي أعدها الإنسان .

إن لشخصية بواس ومؤلفاته طريقـــاً متعرجة . فهو موسوعي أفاد عدداً كبيراً من الانتروبولوجيـين الاميركيين الكلاسيكيين ، ولكنه لم ينشر سوى كتابين او ثلاثة ، وهذا ما لا يعطيه مكاناً بين كبار المؤلفين في الانتروبولوجيا المجتمعية؛ إلا أنه أعطى أفضل ما عنده على صعيد المقالات ، ولم يحرز أحد غير بواس هذا الامتياز ، من حيث وجهة الالتزام العلمي المفروض ، ومع ذلك فقد كان نوعاً ممن يتناول كل شيء ، إذ كان يمد يده ، مرة الى الانتروبولوجيا الفيزيائيـة ، ومرة الى الألسنية ، فإلى التكنولوجيا ، فإلى الفولكلــور ، وأخيراً الى الانتروبولوجيا المجتمعية ، دون ان يتحاشى العيوب التي يمكن ان يجرها هذا النهج المتوزع المتعرج . وعلى الرغم من هذا كله ، فبواس محترم مفضل في الانتروبولوجيا الاميركية ، وهو الذي ليس له نظرية شاملة ، ولا تحليل نموذجي في نظام اجتماعـــي مشابه . فقد ادار ظهره للأفكار العامة وللأوصاف المركزة في التمليل ، الى درجة تقترب من سببية الأمراض ، ولكنه كان يستطيـــع ، كآخرين سواه ، ان يقرن اسمه بتحديد الاقتراب الشخصي من نمطية جديدة حقاً تسمح بدراسة ملتزمة وصفـــاً

معيناً لجماعة ، او غير ملتزمة . ولكنه لم يفعل ذلك .

كل هذا لا يمنع مؤلفات بواس من ان تبقى ذات شأن هام . فالفجوات التي تركها يوضح امرها تشدده في مطالب عمله . وهذه الميزات المعكرة جو العمل توجد في مؤلفاته على شبه بشخصيته . وهو فرانز بواس (١٨٥٨ - ١٩٤٢) يهودي ألماني ، تلقى تحصيله العلمي مزدوج الصيغة : اولاً في العلوم الرياضيـــة والفيزيائية ، ثم في الجغرافيا والفيزياء ، ومن المعلوم ان الجغرافيا لم تكن حتى التاريخ الذي كتب فيه بواس غير فيزيائية . وفي حدود مسلسل من التقلبات السريعة ، وجد نفسه أنتروبولوجياً أميركياً . ويبدو ان الحملة التي قام بها عند الاسكيمو في أرض بافين ، سنة ١٨٨٣ ، كان لها الأثر الفاعل في توجيه الدعوة الذاتية التي لبى نداءها . وبعد أن علّم الجغرافيا ، استطاع ان يقوم برحلة أخرى عند الهنود الاميركيـــين في كولومبيا البريطانية . ولشدة ما كان مأخوذاً بمحبة البحث الانتروبولوجي وبالوجود الأميركي ، قرر ان يكرس نفسه لدراســـة هنود اميركا وان يصبح ذا هوية اميركية ، وقد تم له ذلـــك سنة ١٨٨٧ .

وتجاذب وجود بواس المهني تراوح بين المتاحف والجامعات وقد انتسب بالتتالي : الى متحف ولكير كوند البرليني ، والى متحف فيلد في شيكاغو ، وإلى المتحف الاميركي ، كما انتسب

الى جامعات : برلين ، وكلارك ، وكولومبيا . ويبدو انه كان ذا طبع صعب ، وخاصة استطاع ان يستبقي أصوله المزدوجة الالتباس . فبعضها يمتّ الى الصلابة الرياضية المتمرسة بالمصاعب وكثيرها يعود الى المركبات النفسية التي لم يستطع ان يتغلب عليها قط : من هنا كانت بلا ريب ، تحسساته السريعة ، وفقدانه الاستنتاجات المركزة المنهجة ، وقسم من احكامه المسبقة . والخصومة التي ابداها دائماً تجاه البحث عن القوانين العامة ، والوصف المركز للاحاطة بالتعليل ، لم تكن خصومة « خالصة » ، لأنها ، ولا شك ، ردة فعل في صدام الارتقاء التطوري ذي الانتساب الواحد ، وفي التعبير عن بعض محدودية فكر الباحث : فبواس يبدو ، وكأن الامتداد الاحصائي كان يعوقه دائماً ، وكذلك التعميم والتعليل كانا يحولان دون التركيز. وهذه المآخذ يمكن ان نلاحظها حتى في تهذيبه مؤلفاته : فالتصميم يظهر فيها غالب الارتخاء عليه ، والمنافذ الممكنة ليست موضع إفادة ، والهندسة مدرسية ، لا مهارة فيها ولا اتزان .

ومؤلفات بواس ظهرت مجلدات قليلة العدد ، نذكر منها : « عقل الانسان البدائي » ، نيويورك ، سنة ١٩١١ ، « الفن البدائي » ، ١٩٢٦ ، « الانتروبولوجيا العامة » ، ١٩٣٨ . ولكن اعماله الهامة جمعت في بضع مئات من مذكراته ومقالاته

التي ظهرت في نطاق منشورات مكتب العرقيــة الامــيركي ، ومتحف التاريخ الطبيعي الوطني ، الخ ، وهي : « الإسكيمو الوسطى » ، ١٨٨٨ ، و « التنظيم المجتمعي والجمعيات السرية عند هنود كوكيوتل » ، ١٨٩٧ ؛ « اسكيمو بافيلند وخليج هدسون » ، و « ميثولوجيا التسيمشاين في كندا » ، و «قواعد العرقية » ،و « الارتقاء التطوري والارتقاء المقارن » ، الـخ . وقد جمع بواس بعض أهم هذه المنشورات تحت العنوان التالي : « سلالة ولغة وثقافة » ، نيويورك ، ١٩٤٠ .

ولكننا ، من جهة أخرى ، نرى أن بواس قـــام بعمل خالد ، يقوم ، أساساً ، على صعيدين مختلف أحدهما عن الآخر: انتروبولوجيا فيزيائية ومجموعة أساطـــير دينية وتقاليد مروية شفوياً . ولقد كان صبوراً ، في هذه وتلك من متناولاته ؛ اذ كان يجمع الوثائق المضمونة الأصلية ،التي لم تكن لتقتضيه الأخذ بأوضاع فلسفية . أما في الحقول الانتروبولوجية الأخرى ، التي زارها كلها ، فحصيلته فيها أقل فائدة بكثير. وتشاؤمه المعمم انتهى الى أن أصبح طريقة تعتمد. ولكنه كان يؤلف قاعدة غير كافية .لانه تشاؤم أدى به الى اتخاذ مواقف حاسمة ، شديدة ، بالنسبة الى القرانية التاريخية ،على العكس من موقف كروبير ،والى الفائدة المتوقعة من التاريخ الذاتية ،ومن أهمية علم التحليل النفساني. ولعل استبعاده هذا الاحتكام هو الذي قصّر له رؤياه : فانه كان

ينكر ، بصورة جازمة ، قيمة كل محاولة تجري ، وغايتها مباشرة « حل المسائل الاجتماعية البدائية » بالطريقة الاحتكامية المنوه بها .

وهذه النسبية المقررة ، التي انتهت الى ألسلبية ، تكشف عن جانب منها ، مغامرة بواس الشخصية ، ووضعه الذي بقي وقتاً طويلاً « دون قرار »، وثورته المكبوتة على وسطه العائلي. ومن جهة أخرى ، تكشف فلسفته النسبية ارادة ، مسؤولة أم لا ، آخذة في ردة فعل قاسية ضد الارتقاء التطوري ، كما سبق لنا ، فأشرنا . ولقد رفض بواس ، على الأخص ، أن يعترف بصحة حلم « علماء التنظيمية » الذين انطلقوا من وعود « عهد الفلاسفة » ، وفي مقدمتهم فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيون ، وهم ينتظرون ان يصلوا الى اكتشاف قوانين التطور الاجتماعي الثقافي الضامنة ادارة البشرية في مجملها . فكانت ثورة بواس على هذا النوع من تحويل الخصائص الأجتماعية التي كان يريد القيام به سحرة محترفون يخلطون ، لضرورة تحقيقاتهم المموهة ، عناصر كان يعتبرها متخالفة في ما بينها ، لا تتآلف طبائعها المتضادة ولا تحتمل المقارنة . وكان يعارض هذا الطمع ، الذي حكم باستحالة تحقيقه ، ببحث أضيق حدوداً ينزع الى اعادة بناء الاطار المؤقت لمجتمع معين . فمقارنة بعض الوثائق مقارنة منهجية ، كما عُرفت عن كثير من الجماعات ،

يمكن معها ان نبني المقارنة على قواعد متجانسة ، ومن هـذه الموازنات يمكن ان نستخلص لا قوانين عامة تطبق عالمياً فحسب،بل بعض المفارقات القائمة بين مدركات العمـر وتسلسله الزمني ، وهي مفارقات تلقي ضوءاً كاشفاً على المبادىء الـتي تخضع لها التغيرات الاجتماعية ، في نطاق تطور نتبينه تاريخياً .

وانه لمن الخطأ التفكير في أن بواس الذي شُغل كثيراً في مطلع تكوينه العلمي ـ حتى في مبتدأ دعوتـه الذاتية ـ ، بالجيولوجيا والجغرافيا الفيزيائية (اذ كانت الجغرافيا غير مـا هي اليوم) ، لأن العلوم الفيزيائية والطبيعية كانت تعاني عجزاً أمام انكشاف طبائع الاختلاف والتباين في النواميس البشرية. وما عنينا به بواس نعني به ايضاً تلميذه لووي من حيث النهج التفكيري ، مع بعض الفرق : فالتلميذ صدر عن انضباطيـة أقل تعقداً ، فكان الموضوع أقل تهرباً ، وكانت ردة الفعل في نظام الفكر نفسه : فتأكيد استحالة الوصول الى قانون ، وما اشد هذا التأكيد في بعض الصفحات ، يبلـغ نفي وجود هذا القانون ، أكـثر شـدة . فالى ما ينزع هذا المفهوم المصور البواسي ؟ إنه لأول نظرة ، صعب الوصـل بالإعجاب الشرعي الذي يبديه المؤلف ، من جهة ، وهو من سميناه بـين مؤسسي الانترو بولوجيا الاميركيين ، أصحاب الاثبات البنيوي في وجود النماذج ، وبين الأمل في أن يلحق بهم ، من جهة أخرى . لأن

بواس ولووي ، مرات متعددة ، أنكرا معاً ما هو معروف اليوم ، تحت عنوان حقيقي ، « أسس البحث البنيوي » : وهي ص تنظيمات الاحتمال ، والقيم التقديرية الكامنة خلف التبلورات الثقافية المتعددة الأشكال .

وكان بواس ذا تحفظات شديدة في ما يتعلق باستطاعة إعادة الابنية التاريخية . والبنيوية تعمل ، في نوع من اللامبالاة تجاه البعد الزمني في الحوادث التعبيرية . وهي ايضاً تعمل ، بشكل خاص ، على صعيد العلاقات من حيث البعد المكاني بين الحوادث ، مع الابقاء على استنكارات أو مقارنات تاريخية ؛ ففي فرنسا ، تشهد على ذلك مؤلفات ليفي ـ شتروس ، فهي على هذا النحو ، تركزت على تعاليم بواس مقيمة الرؤيا على الحاضر . وهذا ما يفعله ، حتى اليوم ، علماء الانتروبولوجيا في اميركا ، ولو لم يكونوا بنيويين. ومما يجري في مداناة هذا النحو من الاحتفاظ ، ما تقوم به المدرسة الانتروبولوجية الاجتماعية البريطانية . فتجاوزات الارتقاء التطوري ، من جهة ، وتجاوزات الارتقاء المقارن ، من جهة أخرى ، هما المسؤولان عن هذه اللامبالاة ، التي يمكن أن تكون شديدة ، وأن تكون أخطارها لافتة الانظار من خلال كل الابحاث المعبّرة عن الدور الجماعي .

إن الدرس التشاؤمي الذي أعطاه بواس لتلميذه لووي ، قد امتد وتوطد في مؤلفات التلميذ . وقد تلقى هذا المؤلف دروساً جغرافية متينة كأستاذه ، وكان المدرب لعدد

كبير من الانتروبولوجيين الاميركيين المعاصرين في إبان نضوجهم . وقبل سنة ١٩٣٠ نشر الكتب التالية : « ثقافة وعرقية » ، سنة ١٩١٧ ؛ و « المجتمع البدائي » ، ١٩٢٠ ؛ و «أصل هذه الولاية » ، ١٩٢٧ ؛ و « هل نحن متمدنون ؟ » ١٩٢٩ . وقد أصدر بعد حين ، مدخلا الى الانتروبولوجيا الثقافية ، وتحليلاً للمظاهر الاساسية للبنيويات المجتمعية ، وتاريخاً للفكر العرقي ، جاء نفيساً وان تخلله بعض الفراغ . ويعتبر عمل لووي على حد قول ليفي - شتروس ، في كتابه « الانتروبولوجيا البنيوية » ، عملاً صحياً ، بمعنى أنه حاول ألاّ يقول كلمات لا يستطيع تفسيرها تفسيراً كاملاً حتى ولو بشكل مجازي .

إن لووي قلب الوصف المركزي الذي كان تاريخياً ضيقاً يحدّ الأفق العرقي ، دون أن يفسح لظهور عوامل بنيوية كونية في التأليف ؛ فكان يحدد الزواج ببنات من خارج القبيلة بصيغ وراثية ، كأنها مخطط واصل بين الادراك والحس ، يصلح البناء عليه ، ويولـّد الأحداث نفسها حيثما وُجد ، دون أن تكون هناك ضرورة الدعوة الى اعتبارات تاريخية جغرافية تساعد على فهم المشابهات بين المجتمعات المتباينة . وفي سنة ١٩١٩ ، حطم لووي « مركّب الإنتساب الى الأم » مستخدماً طريقة تؤدي الى نتيجتين أساسيتين لعالم بنيوي . أما نكرانه أن كل

لمة من مشابهة والدية يجب أن يُفسر خلفاً لسالف أو أثراً من
ماض ا « مركّب » بائد ، فقد أفسح المجال لتفكيك ذلك
الملمح الى صيغ افتراضية . ومن جهة أخرى، أظهر أن العناصر
المحررة هكذا كانت تصبح صالحة لإقامة جداول تبادل المميزات
الدالة على أدق المفارقات في أنظمة القرابة . فكان أن مهد
الباب للدراسات البنيوية على وجهين : الوجه الأول نظام يعتمد
طرق النداء ، والوجه الثاني يقوم على العلاقات بين النظام
الندائي وبين نظام الأوضاع الجسدية . وهذا الاتجاه الأخير
كان يجب أن يُتبع باتجاهات أخرى قام بها راديكلف-براوون،
سنة ١٩٢٤ وليفي-شتروس، سنة ١٩٤٥ . ونحن مدينون ايضاً
للووي باكتشافات أخرى. أولها ، دون شك ، أنه أخذ أسس
الميزة للانتساب المزدوج : أمومي - أبوي ، من أنظمة كثيرة
يُزعم أنها ذات انتساب واحد . وله في هذا الصدد كتابان :
الاول نشر سنة ١٩٢٠ ، واسمه « المجتمع البدائي » ؛ والثاني
نشر سنة ١٩٢٩ . وقد أوضح التأثير الذي تحدثه طريقة الاقامة
على النموذج التحدري سنة ١٩٢٠ ، كما فك الرباط المجتمعي في
السلوك العائلي من حيث المحافظة أو الاحترام ، ومن حيث
تحريم الجماع غير الشرعي بين الأقارب .

ان الشك النظامي ذو ميزة فاعلة تبث الحيوية ؛ ولكن
التشاؤم المعمم ينتهي بخنق البحث . أليس هذا ما تؤاخذ به

هذه النزعات الى علم الهيئة ؟ فإن لم يكن هناك نظام ، واذا كان ، بالتالي ، من الواجب ان نرفض تصييغ « القوانين » فما الفائدة إذاً من العرقية ؟ ولووي كان يقول : إذا كنت أرى الغرض من وجود الفأس في التمكن من قطع الشجرة ، فإني لا أرى قط الغرض من الفن ، ومن الدين ، ومن الزواج . ان ردة فعل بواس ولووي كانت صحيحة ، ولكنها جرت بدورها ردة فعل عليها ؛ لأنه يستحيل مطلقاً التفكير مع لووي أن الحضارة « خليط غير متآلف مصنوع من قطع خصلت » ؛ فان هذا المفهوم ينتهي ، عند حد ما ، الى مفهوم مضاد للعرقية .

٦ ـ علماء الارتقاء بالمقارنة

إن النزعات التي نجمعها تحت تسمية الارتقاء بالمقارنة تؤلف ، مثل « الاسمية » عند بواس ، ردة فعل تسجل في اتجاه يعاكس الارتقاء التطوري . والقائلون بهذا الاتجاه من الناس هم ، بوجه عام ، متحولون عن المحاولات الواسعة في التنظيم الثقافي ، ما عدا فروبينيوس والقائلين بالارتقاء بالمقارنة في بلدان متعددة . إنهم ليسوا علماء نظريين : لأنهم يريدون أن ينطلقوا من الوقائع التي يتابعونها في توسعات ، غالباً ، غير منتظرة . وأخيراً ، كان الفضل ، في لفت انتباههم الى أهمية الأحداث ذات الطابع المؤثر ، للدراسات المتناولة تنظيم المتاحف .

وهناك فئتان من الباحثين عملوا ، غالباً ، في هذه المواضيع في ألمانيا والنمسا مع المدرسة التاريخية الثقافية ، وفي الولايات المتحدة . وهذه النظريات يكثر وجودها في أبحاث فريتز غريبنير والأب ويلهلم شميدت ، اللذين نجدهما في أساس ما ُعرف بالمدرسة الموسوعية الثقافية ، أو مدرسة فيينّا ، التي كان لها صدى كبير في بريطانيا العظمى .

وكان تيلور قد سبق الى شرح بعض هذه النصوص حول نشر المبادىء العرقية . ولكن أساس هذه الطريقة ُعرض في مقالتين من « الحركة العرقية » ، في السنوات الأُوَل من القرن العشرين : احداهما الفريتز غريبنير تتناول دراسات في أوقيانيا ، والثانية لأنكيرمان تتناول دراسات مماثلة في افريقيا . أما أنكيرمان فقد سبق أن كان عالماً في توزيع الآلات الموسيقية ، وبعد بضع سنوات لفت الانتباه الى أهمية « الطوطمية »[1] في افريقيا السوداء ، سنة ١٩١٥ . وفي ما قبل غريبنير ، الذي حدد المنهجية الأولى الصادرة عن تركيز فكري ، انطلق فروبينيوس من تعاليم راتزيل ، أول باحث أحدث ردة فعل صريحة ضد الارتقاء التطوري ، وراح يدفع الى الغاية القصوى

---

١ ـ نظرة علمية قامت على الاخذ بالطوطم ، وهو حيوان ذو مشابهة تذكر بجماعة او فرد . وعليها قامت الطوطمية وهو مبدأ المشابهة بين نماذج متخالفة في الاصول . (المترجم) .

آراء المعلم العجوز ، دون أن يتردد في تعيين الأصـل الواحـد لمجموعتين كانتا شبه مجهولتين ، ولكنهما كانتا تبدوان مختلفتي الأصل : هما أوقيانيا وافريقيا السوداء .

وكان هناك مفهوم جريء معقد بنظريات خياليـة تتناول التأثير الذي كان « للحضارة الاطلنتيدية ». ولكنه من الحيف ألا نرى في ليو فروبينيوس غير واحد من هؤلاء المفكرين النظريين الذين يتحولون عن الحقيقة ليفرضوا نظرياتهم المغامرة . لأنه ، على العكس ، انطلق من الحقيقة ، ولكنه فسرها بقليل من الدراية . لذلك لا نستطيع أن نقر له بحـــق الأولية في استخدام طريقة « الآفاق الثقافية » استخداماً موسعاً . فكان يمايز ، في افريقيا ، بين خمس ثقافات كبيرة هي الحضارات : الاثيوبية ، والحامية القديمة ، والارتيريـة ، والسيرتيـة [1] ، والاطلنتيدية[2] : الطبقتان الأوليان هما أصيلتان في بلادهما ، والطبقات اللاحقة زمناً ، ومصدرهـــا آسيا واوقيانيـا أو المتوسط ، جاءت تغطي الاصل الزنجي المتوغل في القِدَم . ولكن هذه الابحاث الممنهجة احتاجت الى اعادة كرّة يجريها المؤلف ؛ لأنها كانت تفتقر الى وثائق ثابتة . ونحن اذا نظرنا في

١ ـ اسم قديم للخليجين : خليج ليبيا ، وخليج تونس . (المترجم) .

٢ ـ جزيرة في الاطلنتيكي كانت في الماضي البعيد مدفونة، ثم اصبحت من عهد افلاطون مستوحى اساطير . (المترجم) .

رسالة التعليل الحديثة ، التي أنشأها بومان، رأيناها تمثل محاولة أثبت لدى المناقشة ، ولكنها ، هي ايضاً ، موضع لعدم التسليم بمنهجيتها : وهذا يعني أن فروبينيوس جاء سابقاً زمانه سبقاً طويلاً . فالتعليل لا يمكن أن يأتي الا بعد التحليل ، أو أن يداخل التعليل بعض افتراضات عمل ، تتداخل في قيمة البحث ، وتقوم بذاتها على قواعد متينة .

أما غرايبنر فانه يتمتع بجدية في العمل ،حتى أننا نستطيع أن نأخذ عليه إسرافه فيها ؛ لأنه كثير اللجوء الى المبادىء العلمية . وله في جملة مؤلفاته ، غير المؤلف الذي ذكرناه سابقاً « الطريقة العرقية » ، نشر سنة ١٩١١ ، في مدينة هيدبلبرغ : كتاب « العرقية في الانتروبولوجيا » ليبزيغ سنة ١٩٢٣ .

وأما الأب شميدت ، منظم مدرسة فيينا ، فانه لا ينفصل عن غرابنير في أية فكرة أساسية . وقد كان لنشاطه الفاعل ولإخلاصه في البحث ، ذلك الإخلاص الذي لم يتجرد من الافتراضات المسبقة ، الملائمة نزعته (كالأخطاء في النظر الى مبادىء الشعوب البدائية ، مثل : الزواج من امرأة واحدة ، والاعتقاد بالاله الواحد) كما كان لتكريسه ذاته للانتروبولوجيا تأثير محبب جعل منه وجهاً لامعاً من وجوه العرقية الحديثة .

وفي مقابل هذا التعاقب الماثل أمامه كل محافظ آخذ نفسه بتفسير متشابهات من الأحداث الثقافية : كالتكتل أو التحدر

التناسلي ، نجد أن القائلين بالارتقاء المقارن يختارون دائماً الحد الثاني . وهكذا نجد أنفسنا مباشرة أمام أول معايب هذا النظام : في تكتله . والأساليب المتوسطة تُستبعد لمصلحة العدوى الثقافية ، معتمدة فعل بقعة الزيت في التفشي ، أو التوزع الجغرافي في أبعاده الواسعة . واذا ما اعتمدنا هذا المبدأ من النظر الى الأمر ، رأينا الواقع يتكشف عن أن الأخذ بجانب الارتقاءبالمقارنةلا يخرج عن كونه رفضاً للقبول بالإفراط في التسليم بالارتقاء التطوري ، ومعلوم أن ردة الفعل لا تخلو من المزايدة أبداً ؛ ولكن المؤسس ، منظم مدرسة فيينا ، وقع ، هو ذاته ، في مبالغات متناقضة .

وفي دفع المفاهيم حتى التطرف ، نصل الى مخطط هيكلي متطرف أيضاً : وهكذا يجد الباحث نفسه عائداً بكل وسائله ومتناولاته الى مراكز التوزع التي تنقص قليلاً قليلاً ، والى الحد ، والى وسط تجديدي واحد ؛هذه وضعية الارتقاءبالمقارنة في بلدان متعددة ، كما عُرفت في بريطانيا ، ولكن غريبنير يعيد الكرة على أفكار لفروبينيوس ،دون أن يقع في اعادة ابنية أفسدها تجاوز المعقول . انه يقاسم ايليوت ـ سميث حكمه المسبق على انعدام الطاقة التقنية عند الانسان : ففقر الخيال عند الكائن البشري ، على حد قوله ، واقع عام يأخذ بعين الاعتبار شهرة التجديدات التقنية ، وقد تكون شهرة أخاذة .

وهكذا ظهرت رسالته ، وهي ، حتماً غير صحيحة . وكان من الافضل لو أنه عمل في تقويم العامل المجدب المانع من الخلق ، الذي تثقِل به نزعات التقليد والملاءمة على الدماغ ، وفي الحد من شدة هذا اللجام الذي تمسك به سيطرة التقاليد ، ومن الالتزام الفردي بالقاعدة والنهج الجماعيين . وهذه هي العوامل التي تكشف عن ماهية البطء في ت لف جوانب التقني؛ ولكنها بكل تأكيد ، لا تستطيع أن تفسر الاولية المزعومة للمقارنة . ومن جهة أخرى ، فان غريبنير ، ومن بعده شميدت ، لم يستطيعا التخلص من عيب الطريقة التي يرفضها فروبينيوس ؛ لأنهما بعيدان عن أن ينتظرا أن تكون تحريات أوصاف العرقية قد تسنى لها وضع جدول تقني يشمل مختلف المجتمعات ، فيرسمان تصميماً مختصراً يضمان عليه الأسباب الثقافية المختلفة . وهكذا يتوفر لنا تصميم قائد مهذب يهدف الى الكشف عن التباين الذي لا حدود له ، القائم بين حضارات كانت قبل الأخذ بدراسة الحضارات . ولكن هذه الارادة المحتكرة ، في نظام واحد ، جميع السلطات التي تتناول متنوع الثقافات ، تعطي الارتقاء المقارَن صفاته المميزة ؛ غير أن هذا النظام كان عند مؤلفين آخرين ، سبق أن أكدوا أولوية التاريخ . نذكر على سبيل المثال : ريفرس في بريطانيا العظمى أو بواس في الولايات المتحدة .

إن التصنيفات التي نظر فيها غريبنر بدائيـاً ، ابتداء من المقطيات الاوقيانية ، عاد الأب شميدت الى تناولها فعممهـا . وكان غريبنير يمايز بين ست من الدوائر المصنفة : البدائيـة أو التاسمانية [١] ، والبوميرانج أو اوستراليا القديمة ، والتوتامية ، والصنفين والأرك أو الميلانيزية ، والبولينيزية . وهذه الدوائر المصنفة زاد في تعقيدها ، في ما بعد ، الأب شميدت بإستنـاده الى التدقيق في وثائق الأقزام ، والى نوعية من التمييز جديدة ، ابتداء من مبدأ الأخذ بالعناصر السوسيولوجية ، وليس بالعناصر التكنولوجية . ولكن ، من المستحيل اقامة أبنية ثابتة على قواعد قابلة التفتت ؛ ونحن بعيدون حتى اليوم ، عن أن ننتهـي الى تحديد في التنظيمات الجماعية دون أن يسبقه جدول عرقي .

والموازنات التي يعتمدها علماء الارتقاء بالمقارنة تبـــدو ، غالباً ، كثيرة الجرأة ، لأنهم يضعون ، في درس العـــلاقات ، أحداثاً متباعدة جداً في الزمان وفي المكان. وهذا الوضع واحد من أكبر القواعد التي قامت عليها هذه المدرسة ، وهو أن نرى ثانوياً ، وحتى تافهاً ، كل ما يعترض هذا النظام من حواجز أو عوائق : فعندما نكون أمام طائفة من المتشابهات التي حققنا في أمرها ، بصورة مؤكدة، خارج افتراض التكتل ، نستطيع

١ ـ نسبة الى جزيرة تاسماني التي يفصلها مضيق باس عن اوستراليا . (المترجم)

أن نقوّم امكانية التحدر التسلسلي ، دون أن ندع المجال للأبعاد التاريخية والجغرافية ، لأن توقفنا . لكن ، لا بد من اعتماد الرصانة ، فلا نواجه ، مثلاً ، ودون تشاؤم ، افتراضاً في علاقة نشأت بين الميلانازيين وقدامى سكان البيرو ، على أساس توزيع الناي القديم ، وهذا افتراض حركه أحد تلاميذ غرابينير وشميدت ، يدعى فون هورنبوستيل ، وهو من خيرة الباحثين في تطور الموسيقى ، يقره على هذا ، بتطوع فضولي ، دماغ موسوعي النظرة مثل لووي . ولكن المقصود هو ، بلا ريب ، احدى النقاط الأقل تناقشاً في الطريقة ، والتي ترفض ، مع ذلك ، رفضاً جافاً ، أي تهيُّب أو تردد . ومع ذلك فحجج النفي أو الاثبات المستخلصة من الابعاد التاريخية أو الجغرافية يجب أن تبقى تابعة للموضوع وتابعة منه . وتوجد من جهة تقنيات دائمة ، ومردودات من تقاليد لم يبق لها مكان ، ومن جهة أخرى ، نجد أن حركة دوران الافكار والأشياء بدأت منذ ما قبل التاريخ .

وإذا صح أن طريقة الارتقاء بالمقارنة كانت ، في أساسها ، باكورة في أعمال فروبينيوس وغريبنير ، فلم يبقَ الا أن يكون هناك باحثون منفردون استشعروا خصبها ، كما كان هنالك في الولايات المتحدة أيضاً حركة أفكار انتشرت ابتداء من تحليل حوادث التماسّ الثقافي ، ومن التأثير المنسوب الى المدرسة

الالمانية النمساوية ، ومن أن البحث أخذ بسرعة في الازدياد الكمّي ، فكانت هذه الحسابات المنهجية توضح الرغبة في التشديد العلمي الذي لا بد من الثناء عليه ؛ ولكن مؤلفيها ، يبدو أنهم لم يفهموا ان تجاوز الاعتدال في هذه الحسابات يجعل قيمتها الرقمية وهمية ؛ كما تصبح مقارنة الأنظمة في عظمتها أوضح دلالة ومعنى من نص الاحصائيات المعينة .

لقد كان ويسلير أكثر الذين أفادوا من استعمال مفهوم الارتقاء بالمقارنة استعمالاً نظامياً . ومن الجدير بالذكر أيضاً انه انطلق من دراسة التنظيم المتحفي . وقد حدد في مؤلفه ، الذي بدأه قبل الحرب العالمية الأولى ، المبادىء الأساسية للوسط الجغرافي الحيواني ، سمّاه « تأثير الحصان في انتشار الثقافة الاميركية الانتروبولوجية » ، يتناول فيه التحقيق في التوزع المسافي مربوطاً بالمدة من الزمن ؛ وبقدر ما يكون انتشار النص الثقافي واسعاً يكون النص قديماً . انه عمّق المفهوم الثقافي ، وحذا حذو رادكليف-برون في استخدامه صيغة باترن[1] . وقد طبّق هذه الطريقة في درس الأوساط الجغرافية الحيوانية الثقافية في ميركا الشمالية : « الهنود الاميركيون » ، ١٩٢٠ ؛ « العلاقة الطبيعية للانسان في أميركا غير الطبيعية » ، ١٩٢٦ . وكذلك عرض آراءه النظرية في مقالات كثيرة وفي

١ ـ شكل نوعية تمثل ، بصورة بسيطة ، بنية حادث بشري. (المترجم)

كتابه « الانسان والثقافة » ، ١٩٢٣ . وفي الفترة نفسها قام باحثون آخرون بالاشارة الى أهمية الحوادث المستعارة: كرادين منذ العام ١٩١٤ ، وخاصة ل. سبياد ، في بحثه الذي صور ، بشكل مدهش ، الطريقة المميزة كمياً الارتقاء بالمقارنة ، في اميركا ، مع تحليله الصيَغ ، والتحقيقات المتناولة توزعاً دينياً اميركياً هندياً ، كما في كتابيه : « الشمس ترقص منعكسة على السهول الهندية » ، و « المتحف الاميركي للتاريخ الطبيعي » ، نيويورك ، ١٩٢١ .

ان حصيلة الارتقاء بالمقارنة ، بالنسبة الى نباهة تكوين الثقافات ، هي في الحقيقة أكثر أهمية مما حاولنا أن نعتقد فيما لو توقفنا أكثر عند بعض المبالغات أو الأخطاء . وقد كانت في خدمة غريبنير طاقة موسوعية مدهشة ، تسلط عليها بحزم ، فكانت عوناً له في اعتماد الطريقة العرقية. فالتحقيق المقارن الذي كان يراه لازماً في تكوين المركبات الثقافية ، لم يكن مفهوماً عنده كإعداد جاف ؛ لذلك راح غريبنير ، على الرغم من الانتقادات الظالمة التي تتنكر لقسم كامل من تآليفه ، يكشف جيداً عن النوعيات المختلفة التي يمكن أن يتلبسها الحادث المعني. فالمستعار يبدو لنا وكأنه نوع حقيقي من الضفدع المائي يحتمل تطوره تبدلات كاملة في شكله ، ولكن النواة الأصلية تبقى كامنة تحت الاشكال المتبدلة دائماً . والانتشار ممكن حدوثه ، كما أن ملاءمات اقليمية كثيرة يمكن حدوثها تجاوباً والبيئة التي يقوم

عليها العمل . والمستعار يمكن أن يبدل شكله ، وأن يشوهه ، وأن يغيّر مكانه وأن يتجاوز حد المألوف في نمـوه ؛ فعنصر كهذا ، في الوثيقة المستعارة ، أنقله الى الصعيد الرمزي ، وضعه في نطاق شكلي ، واملأه بمحتوى مختلف ، أو على العكس ، خذ عنصراً كهذا وألبسه صيغة جديدة . وهكذا تبدو فكرة غريبنير متكشفة الجوانب والمضامين ، ومنوعـة ، واكـثر مرونة من فكرة الأب شميدت ، الذي كانت حصيلته اقـل فائدة ، على الأرجح . ويجب أن نسجل ان شميدت ، منذ بدء عمله التأليفي ، لم يتخلص من الأحكام المسبقة الـتي ولدها تكوينه الديني : فالعرقية ، عنده ، تبقى خاضعـة لسيطرة اللاهوت . ولم يكن هذا شأنـه : في جهده لتبرير الزواج من امرأة واحدة لرجل واحد ، ومن رجل واحد لامرأة واحدة، ابتداء من الأسلاف القدامى ، أو في جهده العنيد ليجد مبدأ الاعتقاد بالإله الواحد ، قائماً خلف حصائل قُدمت في شكل ثانوي ، بل كان يشفع هذا وذاك بعداء مبطّن يكنـّه حـتى ضد مبدأ النشوء . ومن جهة أخرى ، وقع في الأخطاء الواردة في طرق خصومه الارتقائيين ، عند وضع الخطوط الكبرى لمخططات ، هي ، في نظره قريبة الزراعة الـتي هـي اختراع انثوي فجر التحدد المتسلسل، لينتهي بعد عدد كبير من المحطات، الوسطية ، التي كانت فيها محلة الاقامة امومية ، والتي تلبست

شكل القرابات الحديثة . وفي هذا المعنى ، لا نرى غير مفارقة واحدة بينه وبين الارتقائيين ، هي تأكيـــد وجود خطوط تشوئية ارتقائية ، لا خط واحد ، تحل مكان طريقة التحدر السلالي الواحد ؛ وسيان في هذا : الأخذ بالقواعـــد الفلسفية للموضوع ، والآخذ بمبدأ الحكم المسبق .

وأخيراً ، ان مبدأ الثقافة نفسها قابل المناقشة ؛ وذلك ليس لأنها تلامس جميع القواعد المنطقية المعروفة ، من نموذج عرقي ، الى لغوي أو ديني ، لكن لأنها تنتقي ارادياً ، بـــين مجموعة من العناصر الثقافية الكثيرة العدد والمختلفـة الأنواع ، بعض ميزات مبنية تمييزاً لنوعية ؛ وما هو جدير بالذكر أن الانتقاء يتم دون أن تؤخذ بعين الاعتبار الاسبـاب المبررة ؛ وفوق ذلك ، فالالتماعة الثقافية التي نوهنا بها أو عرّفناها أنهـا ثابتة ، تبقى دون اشارة تكشف عن الجامع بين نجوم هـذه الالتماعة ، او العلاقة الوظيفية التي شدت بعضهـــا الى البعض الآخر . وبمجمـــل القول ، تبقـــى نقطة انطـلاق موضوع مناقشة قائمة على مبررات وجود واهية ، قاعدتها جهد يحاول أن يجعل من الوقائع الثقافية سلسلة متتابعة الحلقات . وهناك أيضاً صعوبات أخرى تظهر عند التطبيق، في مختلف المجموعات الثقافية على هذه الاصعدة المسبقة التعيين : فالمؤلفون يتباعدون في ما يتعلق بعدد الدوائر ، وبامتدادها الجغرافي ، وحتى في ما

يختص بالميزات البنائية . ثم ان مبادىء الدوائر والحلقات ليست ، على وجه التأكيد ، قابلة التراصف البنائي لذلك يُنظر اليها كمتعادلات : فالدائرة هي النموذج الثقافي ، والنوع الاجتماعي ، اذا صح القول ، الذي يتضمن مجموعة التماعات مميزة ؛ اما الحلقات أو الاعشاش فتكون نتيجة امتداد الدائرة الجغرافي ، مع كل الاوضاع المحتملة التي تجيء بها الاحداث التاريخية والظروف البيئية ، ونواميس التراكم أو النمو المتولّدة من اختلاط الزواج العرقي . ثم إن التطورات الدائرية المجابهة الحقيقة يمكن أن تتجاوز كل حساب .

ولقد وقعت اصطدامات عميقة ، في العرقية ، للجهد المبذول لوضع حقيقة متلونة في صلب نظام معين. وهوذا نحن مع انتروبولوجي سويسري الجنسية فرنسي اللغة ، اسمه جورج مونتاندون ، علّم في مدرسة الانتروبولوجيا ، في باريس ؛ عُرف بأنه ينتسب الى العرقية الحديثة ، وعلى هذا الصعيد من عمله التأليفي سنحلله. ولكن يجب أن نعلم ان مونتاندون الذي شُغل بالعرقية مبكراً ، طبق النظريات التي جاء بها غريبنير على تفسير وقائع الوصف العرقي ، منذ سنة ١٩١٩ في « تسلسل وجود آلات الموسيقى ودوائر الحضارة » جنيف ، ١٩١٩ . أما نظريته « مقياس التجمع » فلم توضع في صيغتها النهائية الا سنة ١٩٢٨ .

وأما الروح التنميطية ، عند علماء الارتقاء المقارن ، فقــد بلغت ذروتها في نظريات أصيلة عززها مؤلفان بريطانيان هما : و. ج. بيري ، الذي أصدر سنة ١٩١٨ ، مجلة محترمة أسماها « ثقافة اندونيسيا الماقبل التاريخ » ، وايليوت-سميث معلّمه ، في أبحاث وهمية انتهت الى الابهام ، وبقي غريبنير وشميدت غريبَين عنها . ويجب ان نعزل عن هذه المدرســة الصغرى ، لأصحابها القائلين بالارتقاء المقارن في بلدان متعددة ، دماغــاً قوياً كريفرس ، لا يمكن ان ُيعرف الا في حـــدود الارتقاء المقارن : فله مؤلفات تتجاوز هذا النطاق وتستحق ان تدرس دراسة خاصــة بهـــا . وايليوت ـ سميث ، المتخصص في الانتروبولوجيا الفيزيائية ، وبيري أحرزا شهرة عند جماهـير القراء ، ولكن استمرار شهرتها يستند الى صنع الخيــال اكثر مما يستند الى العلم : ويكفي ان نذكر رسالة بيري وعنوانها : « ابن الشمس » ، ١٩٢٣ ، ورسالتي ايليوت ـ سميث : « آلهة وناس » ، سنة ١٩٢٧ ، و « في البدء وفي اصل الحضارة ». وفي مذهب الارتقائيين بالمقارنة في بلاد مختلفة ، ان الحضارة ولدت في مصر ، بعد عصور من الوحشية كان الناس خلالها يعيشون في مشاركة ، وبعد رهان من الظروف الملائمة ، ومن هنـــاك شعّت على سائر الكرة الارضية . ولمّا كان الناس آنئذ غــير قادرين على المبادرة او التجديد ، راحوا يقلدون التحقيقات التي

توصل اليها المصريون ، منقولة اليهم ، وخاصة عبر البحار . ثم كانت عصور القهقرى التي لا بد من دراستها ؛ لأنه ما ان بلغت حضارة النيل عهدها الذهبي حتى أخــذت الثقافات تتدهور . ولعل عناصر هذا البحث الوهمي كلها غير صحيحة. والفائدة العرقية الوحيدة التي لهذه النظرية ، هـي في طرح مسألة العطب السريع الذي يصاب به الدماغ العلمي، على صعيد الاسلوب ، وكيف ان فكرة معينة ، تستطيع أن تمحو كل معنى نقدي .

٧ - بدايات الارتقاء بالدور الجماعي

ان المبدأين المركزيين لتفسير الارتقاء بالدور الجماعـي ، في معطياته المجتمعية ، أي مبدأي التواصل والتوظيف ، لم يكن ماليوفسكي هو الذي حدد صيغتيهما لأول مرة ؛بل دوركهيم ، وبواس ، وموس ، وتورنوالد ، وراديكليف-براون هم الذين حللوهما ؛ ولكن مالينوفسكي هو الذي وضعهـما كأساس لطريقة كان يريدها جديدة . غير انه لم يعتمد هذا الوضع الا تدريجياً . وقد كتب بول ميرسيه ، في هذا الصدد ، ما يلي : « ابتداء من سنة ١٩٥١ ، بدأ مالينوفسكي يشرح بأفضل ما يُستطاع من الوضوح ، النصوص التي شرحها ومنهجها في ما بعد » ، وجاءت كلمته هذه في باب « ثقافة » في دائرة معارف

علم الاجتماع ، سنة ١٩٣١ . اذاً علينا ان نمسك ببدايات الارتقاء بالدور الجماعي ؛ وانه لمن المؤكد ، والحالة هذه ، ان النصوص الكبيرة كانت حاضرة منذ عهد الأعمال الأولى ، والتي تمت في هذا الميدان ، وقام بها المؤلف ابتداء من سنة ١٩١٥ .

لقد كانت ولادة برونيسلو مالينوفسكي في النمسا ، من عائلة قديمة بولندية . وبعد ان مات ابوه ، وهو ما يزال طري العود ، جاء مع أمه الى لندن لينضم الى بعثة تبشيرية ، قصدت اوستراليا ، في الوقت الذي كانت تندلع فيه نيران الحرب العالمية الاولى . وقد اعتقل في بادىء الامر ، بوصفه من « جنسية معادية » ، ولكنه نجح في اقناع السلطات الاوسترالية ، بعد حين ، بأن يعهدوا اليه بالابحاث الانتروبولوجية في الاراضي التي كانت تراقبها في غينيا الجديدة ، والتي كانت ، حتى ذلك التاريخ ، مجهولة عملياً . وهكذا استطاع ان يعمل على ارض غنية مدى سنوات عدة ، شمل فيها عمله جزر تروبريان القريبة من غينيا الجديدة . وعند عودته الى اوروبا توفر له أن بدأ مهمته على مستوى جامعي ؛ غير مشتملة على الصفة الدينية .

الفكرة المركزية التي بنى عليها مالينوفسكي مبادئه هي ان كل عنصر كائن في بناء مجموعة ثقافية يفسر بالدور الحالي، اي بالوظيفة التي يشغلها في قلب هذه المجموعة . إذن كل ثقافة يجب أن تكون قابلة التفسير من خلال وصف تطورها الزمني المعين،

ابتداء من مجرد تحليل معطياتها العصرية . ومما لا شك فيـه أن هذا الوضع ، بوصفه دقيق التعيين ، لا يمكن ان يُفهم الا اذا حدد مكانه ، على الرغم من النظرية نفسها ، في جانب ما من التاريخ ، حيث تترافد الحوادث الى الوضع المعـني : فالمقصود ردة فعل مناقضة الاهمية المبالغ فيها ، وهي اهمية أعارهـــا الارتقاء التطوري لمبدأ البقاء ؛ ولكن لا يجوز ان نقـــع في مبالغة العكس ، ونحن ننكر كل فائدة من التحليل ، وحتى لننكر تماثل متخلفات البقاء في قلب الجماعة .

وهذا مالينوفسكي نفسه ، ينص المبدأ الاكبر لطريقته اذ قال : « ان في كل نموذج حضاري ، وفي كل عادة ، وفي كل شيء مادي ، وفي كل فكرة ومعتقد ، ما يملأ وظيفة حيوية ، للقيام بمهمة ، تمثيلاً لجانب لا يُعوض عنه في المجموع العضوي . وكل عنصر من المجموعة ، هو غير قابل الانعزال عن الكل ، متضامن ، فيؤمّن اذن عملاً نوعياً . وكل مؤسسة تلبي حاجة معينـة من العضوية المجتمعية . هذا المبدأ الذي تطبقه كتب المؤلف على اختلافها ، وهي التي تبدو نتيجة ، وتعميماً ، للتحقيقات الـتي جرت على ارض ميلانيزيا الغربية . والمنشورات الاساسية هي التالية : « المغامرات البحرية في الغرب الباسيفيكي » ، سنـة ١٩٢٢ ، و « الجريمة والعادة في المجتمع المتوحش » ، سنة ١٩٢٦ ؛ وهناك كتاب جاء محاولة تؤذن بأبحاث عرقية قانون العادات ،

وكتابان آخران جديدان جريئان ، ظهرا في عهد كانت ما تزال فيه هيبة التحفظ سائدة ، تجرأ فيهما على الكلام في موضوع العرقية الجنسية : « الجنس والتحريم في المجتمع الوحشي » ، سنة ١٩٢٧ ، ثم ، وبعد كثير من المقالات التي نشرها ، في الموضوع نفسه ، نشر تحليله الجريء « الحياة الجنسية عند متوحشي الشمال الغربي في ميلانيزيا » . ولا بد من القول ان معالجة مالينوفسكي لبعض المسائل الجنسية ، معالجة موضوعية معمقة ، تعتبر فتحاً جديداً يستحق التقدير والاعجاب . انه كان ، على هذا الصعيد الصعب المتناوَل ، رائداً مدهشاً يتقدم في ميادين كانت محرمة حتى ذلك التاريخ . وكان قد أنشأ علاقات مع العالم الجنسي الطليعي الكبير ، هافيلوك إليس ، في لندن . وجدير بنا ألا ننسى هذا المفهوم الهام والاساسي ، بمؤلفات غنية الابحاث معقدة المادة . ومن جهة أخرى ، أظهر مالينوفسكي فائدة علم التحليل النفساني ، دون ان نتقبل ، كل تعليم فرويد . ولكنه ، على العكس ، وضع تحت الامتحان ، على الحقل المعنيّ بالدرس ، بعض النظريات الاساسية في علم التحليل النفساني . وعمله الأكثر أهمية ، في هذا الصدد ، تناول تفسير عقدة أوديب . وقد ترك أحياناً مجالاً لإساءة فهمه ، فقام أخصام علم التحليل النفساني يجازفون ، غالباً ، في القول بأن ملاحظات مالينوفسكي تغاير صحة تأكيدات فرويد . والحقيقة ان العكس

هو الصواب؛لأن التفكير الآلي الفرويدي استعاد وجوده، وجدد تأكيداته بصورة باهرة ، كما دلل على ذلك مالينوفسكي نفسه : فالمجتمعات المنتسبة الى الأم قلبت صيغ عـــلاقات القدرة وعلاقات التفاعلات العاطفية التي تربط الأولاد بأهلهم ؛ ففي المجتمعات التي درسها فرويد ، ينشأ الولد ضد السلطة التي ترمز اليها سلطة الاب ، في حين تنشأ علاقة التفاعل العاطفي الايجابي مع الام . وفي رأي مـــالينوفسكي ان المجتمعات ذات الانستاب الى الام ، في ميلانيزيا ، تجهل عامة الوظيفة الأبوية النفسانية ، في التوالد ، فيجعلون الولد ، في كل حال ، تابعاً لخاله . فعندما تكون الأخوة أمومية فقط ، تتركز علاقة السلطة على الولد مع أخي الأم ، بينما تكون العلاقة بالأب ، على العكس ، قلبية عاطفية فقط . وفي هذه الظروف يُعتبر المحرّم ديناً وتقديساً قائمـاً من جهة قربى الاخت وليس من جهة قربى الأم . ولقد كان في استطاعة مالينوفسكي ان يعمّق أبحاثه في التحليل النفساني، وان يرسم الخطوط الكبرى بطريقة جديدة في تفسير الحوادث الاجتماعية البعيدة القِدم ، ولكنه رُفض لموقفه التحريمي ، ازاء امور كثيرة يستند النظر اليها في التحليل النفساني ؛ وكان رافضوه ممن أصيبوا بالعمى عن الحقائق ، امثال ارنيست جونس ، الذين كانوا يعتبرون هذا المخطط نوعاً من المذهب الفرويدي في خطه المستقيم .

والحصيلة الثانية الكبيرة مما جاء به مالينوفسكي هـي منهجية التحقيق. فقد أشار بضرورة درس المجتمعات من الداخل، وبضرورة مواجهتها من حيث النظر الى العراقة في الانتساب الى الوطن. والمبادىء الكبيرة هي:

ـ أولاً، يجب ان يدقق الباحث باذلاً جهده داخل المجتمع المعني بالدرس. وفي مواجهته هذا العمل الدقيق يجب ان يتجاهل مفاهيمه الشخصية التي تستطيع ان تفشل تقديره الوقائع، وأن يتجاوز فئويته الخاصة التي اندمجت في ذاتـه، فيُداني معرفة الجماعة التي يدرسها دون اي حكم مسبق، محتفظاً لذاته بالقدرة على اصدار احكام ذات قيمة. لذلك يجب ان يساكن الجماعة وان يمارس عاداتهم الى أبعد حد ممكن، وأن يحاول احراز قبولهم اياه عمقاً، بتعلّم لغتهم، ومعايشاً اياهم في حياتهم اليومية التي يحياها عامتهم. فالتحقيق الذي يقتضي وسائـل كهذه ليس تحليلاً دقيقاً للمادة المجتمعية؛ وانما هو مشاركة حياة: انها نظرية «المراقب المساهم».

ـ ثانياً، تحقيق كهذا، يتناول ثلاثة مستويات من المعرفة لأن الأخذ باعتبار الحقيقة شيء غير بسيط، وغـير متلبس بالظواهر، لأن الحقيقة مركبة؛ فهناك مستوى العادة النظري، والرسمي، كما أثبتته التقاليد؛ وهناك ايضاً مستوى الحقيقـة التطبيقي كما تفسرها الاحتمالات المحسوسة؛ وهناك اخـيراً

مستوى التفسير الذاتي الذي يقدمه ، مختارين بحكم مألم فهو، المعنيون بالدرس أنفسهم .

ـ ثالثاً ، الوسائل التي يعتمدها الباحث المحقق يمكن أن تتغير . فهو يحاول أولاً أن يضع مخططاً عاماً ، توظيفياً ، ترتسم فيه بنيوية الجماعة . ثم يجمع اضبارة عرقيــــة كاملة ، مقتطفاً « حكايات مُعاشة » ،واحتمالات حققتها الحياة اليومية؛ فيكتب ما استطاع من قصة حياة الجماعة اليومية كتابة مفصلة، كما تبدو له يوماً بعد يوم ، في ألوف من تفاصيلهــا المعبّرة عن مجرى الحياة . فالواقع المجتمعي يُسجل من خــــلال الاحتمال الواقع ، مشحوناً بالحيوية ، أفضل مما لو سُجل من خــــلال معلومات نظرية غير مباشرة .

وهكذا يتضح أن مالينوفسكي حاول أن يجمع عناصر الحقيقة من أقرب مصادرها. وإذا كان لم يحاول المعالجة الاحصائية المتناولة الوقائع المتماسكة ، فانه قد أوضح أهميــة التحقيق الكمي .

ولكن مالينوفسكي لم يتفرد باحترام هذه النظرية الــــتي تتناول المراقب المساهم . فقد كان يحتفظ بحسنات ميزتــــه ومعايبها كلها ، ميزة مَن لا يُحسب في المتطبعين بالبيئة من علماء العرقية . وقد حافظ على هذه الميزة أثناء وجوده في ميلانيزيا . وهذه المحافظة ، مغايرة ، في عمقها ، لوضع المراقب المساهم . وفي هذا المعنى قال : « بما أن الميلانيزيين كانوا يعرفون جيداً

أنني سأحشر أنفي في كل أمورهم ، حتى في الاماكن التي لايفكر في اقتحامها مواطن أصيل ، انتهوا الى اعتباري مساهماً في حياتهم ، أو شراً لا بد من وجوده » . نحن هنا نواجه طريقة أخرى من طرق اندماج المحقق في الجماعة التي يتناولها التحقيق: فالمراقب المساهم يوجه اهتمامه الى إلهاء المعنيين بدراسته أنه غريب عن هويتهم ؛ فهو واحد بين آخرين . ومالينوفسكي ينتحل هنا دوراً آخر : فهو لا يستطيع أن ينسيهم من هو ، ولا أن يكون غير واحد بين آخرين ، لأنه لم يكن يتردد في أن يعمل « بالقوة » . ولكنه ان كان يستطيع أن يقوم بأعمال لا تناله عقوبة عليها بينما لا يجوز لآخر أن يقوم بها ، فلأنه يحمل صفة مأذونة ويقوم بدور خاص : وقد أقرت له الجماعة الصفة والدور ، ولكن على أن يتصرف كشاهد أو مدافع ، في حالة نوعية هي حالة فرد هامشي ،مبتدع ، وفي آخر الأمر، غير عاقل . وليس من عالم عرقي عامل في هذا الميدان،لا يعرف هذا الوضع النوعي الذي يُنسب اليه . كما أنه ليس من المراقبة المساهمة ، والعالم العرقي عندئذ ، هو المساهم المراقب الذي وصفنا بطرافة ؛ فالجماعة تقبله ، وتعترف به ، وتعطيه دوراً غير عادي ، ملاحظة ، من جهة أخرى ، بدورها ، الوقائع ، والحركات بجاذبية مسلية .

ولكن المآخذ الاكثر وضوحاً،يتناولان عداوة مالينوفسكي

للتاريخ والتكنولوجيا . وعلى الرغم من ذلك ، فقـــد كان ذا اهتمام تام بالاهمية التي يحتلها الوسط الطبيعي ، وجهاز التقنية الذي في متناوَل الجماعة . وطريقة الارتقاء بالدور الجمـــاعي ترتكز ، من وجهة أخرى ، على المبدأ الأولي الذي هو قاعدة تحديد الحوادث في ما بينها ، فكل الاضلاع به متواصلة. ويبدو اذن أن الافتقار الى الوقت والتفضيل الشخصي هما اللذان حملا مالينوفسكي على معالجة التنظيم الاجتماعي قبل التنظيم المادي . والمأخذ الثاني يبدو أعظم خطراً من الافتقار الى الوقت ، ومن التفضيل الشخصي ، لأنه يبدو قابلاً للجدال . ولا شك في أنه قائم في منطق طريقة الارتقاء بالدور الجماعي ، وفي تصغـــير الفائدة من اعادة الأبنية التاريخية الى ادنى حد يمكن ، لأن كل الآلية المجتمعية يجب أن تجد مبرر وجودها في تطورها المرتبط بالزمن المعين . ولكن مالينوفسكي اعتمد أوضاعاً بالغ في تعيينها الفئوي . من هنا ، أنكر أهمية استمرار البقـــاء في الخلف والمتخلفات ، وهذا الإنكار يغاير رسالته ؛ لأن القول بمبدأ استمرار البقاء يقود حتماً الى الإقرار بأن مؤسسة تستطيع أن تستمر في البقاء بعد دورها الاجتماعي : فتبقى كهيكل ، أو غرض جماعي ، مجرد من الفائدة العمليـــة . فكان يتعصب للقول بأن المبدأ يتلاشى عندما يعمّق المراقب دراسته للمجتمع.

وهذا الازدراء الموجه الى المفهوم التاريخي قاد مالينوفسكي

الى اعتماد كل نظام اجتماعي ، عامل في مجتمع متحد الأجزاء ، ذا قيمة نموذجية ، وأنه بعد تقديمه كتفسير تاريخي ، يمكن أن نعرض عنه ، الى البحث عن وجود « قوانين » عامة صالحة لاستبقاء قيمها بصورة لا زمنية . واذا كان يفهم من هذا أن في قلب كل مجتمع طاقات كونية ثابتة تعمل باستمرار ، فلا ندّعي تخطئة هذا المفهوم ، ولكن هذه الطاقات الثابتة ، هي عينها ، قابلة تحديد طبيعتها ، بفضل تعليات كثيرة نستمدها من أنظمة ثقافية أخرى . اذن هذا ليس مطلقاً ما فكر به العالم النظري الآخذ بالدور الجماعي في التطور ؛ فمن هذا المفترق ، وقع تحت ضربات المعايب التي وُجهت الى هذا النحو في تراثه من هذا ، العلم . وهذا ما جاء في « الانتروبولوجيا البنيوية » لِ ليفي — شتروس : « ان الرأي القائل ان المراقبة الاختبارية لمجتمع ما ، يؤمّن الوصول الى أسباب كونية تظهر دائماً كعنصر ادراك ، يأ كل من حصيلة المعلومات التي نملكها ، سعة وعمقاً ، تلك المعلومات التي نعرف مدى حيويتها وغناها » .

٨ ـ من علم التحليل النفساني الى العرقية : مدرسة فرويد

ان مؤلفات فرويد ، على الرغم مما فيها من مبالغات وأخطاء ، هيأت واحدة من وسائل أساسية قادرة ، بعيداً عن كل تقنّع ،

على معرفة الانسان الحقيقي . فقد تعوّد، هو العالم التطبيقي، أن يقدر الفرد ، ولكن فرويد كعبقري توصّل الى مرحـــلة من نضوج الفكر تمكّن معها من استقطاب النوع الانساني . وعلى هذا الاساس ، لم يهيىء عدة جديدة للتحليل صالحة للعمل على مستوى الجماعة ، ولم يعمل لبناء فلسفة جمـــاعية للتحليل النفساني ، كما هي الحال في وجود علم النفس المجتمعي ، أو كما هي الحال اليوم في وجود فلسفة لمعالجة الذهنيات المجتمعيـــة ، بل اكتفى بالبقاء دائماً على مقربة من تحليل الفـــرد نفسانياً . وبتعبير آخر ، ان فرويد في محاولته الجريئة ، التي تناول فيها الانسان المجتمعي ، لم يقترح تحليلاً مجتمعياً ، يمكن ان يكون بالنسبة الى درس الجماعة نوعاً من المناخ المجتمعي، كما هو بالنسبة الى الفرد . وقد سلك ، لسوء الحظ ، طريقاً أخرى : انه بكل بساطة طبّق على « الكائن الانسانية » النتائج التي حصل عليها متناولاً الشخص الفرد . ولم يكن أسلوبه البحثي الجديـــد ، لا طريقة الحلول الرياضية ، ولا منهجية تنقّي دراسة الانسان المجتمعي مما يعتورها من الاخطاء ؛ إنه لم يكن اذن علم التحليل النفساني الجماعي .

ولقد كان في المرحلة الثانية من عمره ، عندما أراد فرويد أن يستقطب بحثه منتقلاً من الكائن الفردي الى الكائن المجتمعي ويعطي تفسيراً في التاريخ الثقافي . وكان أن أجرى تحقيقه ما

بين : ١٩١٠ و ١٩٤٠، معتمداً، أساساً لإجرائه، وثائق عرقية قديمة، تعود الى أقدم ما قام به علماء تطوريون كلاسيكيون، والتي كانت قد فقدت قسماً كبيراً من قيمتها . وممـا نورده، ترجيحاً لا تأكيداً، أن فرويد، نظراً لاعتداده بعبقريته، لم يشأ، وقد لاح له بعض خطئه، أن يصحـح أخطـاءه بنفسه، مستنداً الى بعض النقدات أو مستفيداً من بعض المعلومـات الأكثر صحة مما عرفه سابقاً . وفي رأينا أن غلطتـه الكبرى كانت قائمة في أنه لم يفهم ان الجماعة ككل هي غـير الافراد الذين يؤلفون هذا الكل، وما هو أكثر تأكيداً ان التطورات التي تنتاب النوع البشري متناولاً ككل، لا يمكن أن نعالجها بتعابير علم النفس المتناوِل الفرد . ولقد شاخ كثيراً هذا القسم من مؤلفاته، ولكنه، مع ذلك، لم يفقد فائدة الاطلاع عليه، ولا قيمة معرفته .

ليس من شأننا هنا أن نعيد رسم خطوط هـذا الأثر الفرويدي، الذي لا نشك في أنه أهم ما وصلت اليـه العلوم الانسانية . وهوذا نحن نسجل بعض نقاط : كان فرويد طبيباً، وهذه الناحية الطبية، من المرجح أنها تفسر جانباً من المآخذ التي عيبت عليه : فهو كعالم تجريبي، يقوم عمـله في تقصّي سببية الامراض في الافراد ؛ ويبدو أن هذه الممارسة ولّدت في ذاته ميلاً الى معالجة المجتمع البشري كوحـدة، وككائن ذي

ذاكرة وإحساس : مَثله مثل الحالة التي يفحصها فردياً كل يوم. ونحن لا ننكر أن التحليل النفساني تولّد ، بكل تأكيد ، من تفسير الحالات الفردية ، التي تمثلت ، بشكل مميز ، في مرض الجهاز العصبي . وقد كان لهذا التأكيد مصدر ثابت ، وهو أن طبيباً نمساوياً ، كان زميلاً لفرويد ، عالج مريضة في جهازها العصبي ، فأصبحت المعالجة دراسة علمية . واذا افترضنا أننا عرفنا المرضى الآخرين الذين عولجوا على أساس التحليل النفساني بصورة كلاسيكية ، فان ما نريد ان نخرج اليه من دائرة هذا الافتراض ، هو اثارة هذا السؤال ، بكل بساطة : كيف انتقل تطبيق المظاهر الأساسية لهذه الطريقة التحليلية من فردية الفرد الى مجتمعية الفرد ؟

خمسة مؤلفات تحتوي التفسير ، الذي حاول فرويد ان يضعه فيها ، متناولاً تطور الإنسانية ابتداء من ظهور التحليل النفساني ، هي : « توتيم وتابو » ، ١٩١٣ ؛ « علم النفس الجماعي[1] وتحليل الأنا » ، ١٩٢١ ؛ «مستقبل وهم الحواس» ، ١٩٢٨ ؛ « الحضارة وأخطاء حسابها » ١٩٢٩ ؛ « موسى ووحدانية الإله » ١٩٣٩ . مرة أخرى نذكّر بأن فرازير كان الينبوع الذي روى فكرة فرويد العرقية ، فقد طالما تأمل

---

١ - اقرأ في هذا الموضوع ، لدى منشورات عويدات ، كتاب « علم النفس التجريبي » ، سلسلة (زدني علماً) رقم ٧٢ .

في « التوعية والزواج من غير بنات القبيلة » بعد نشره سنة ١٩١٠ . ولم تتكون المعلومات العرقية عند فرويد ، في صبغة معينة فاعلة، إلا في السنوات الأولى من القرن العشرين. إذن ، في هذه المرحلة من الزمن ُوجد كبار الكلاسيكيين من علماء التطور ، الذين كانوا المراجع الأساسية ؛ فكان أن تبنى فرويد، دون تردد ، مبادئهم الاولية أساساً ، عدا أنه تأثر ، من جهة أخرى بأفكار بعض علماء العرقية الآخرين غير القائلين بالارتقاء التطوري ، ولا سيما أفكار روبيرتسون – سميث .

وانه ليبدو لنا أن ثلاثة أزواج من المبادىء ألّفت القاعدة التي قام عليها هذا الجهد الواسع المعقلن المَسوق الى تفسير المجتمع الانساني وتاريخه ، تفسيراً قائماً في حدود علم التحليل النفساني . وهاكم أزواج المبادىء الثلاثة :

– أولاً : زوج من « قوانين » علم الاحياء : أ – توارث الميزات المكتسبة ، التي من دونها يتداعى البناء الفرويدي بكامله ؛ ب – قانون هيغل الذي يؤكد أن تاريخ الكائن الفرد يعيد تاريخ النوع، أي أن تاريخ الفرد يمر بالتغييرات نفسها التي يمر بها تاريخ النوع .

– ثانياً : اثنان من المبادىء الأولية النفسانية : فالاندفاعات العمياء الغريزية هي في أساس كل السببيات الانسانية ، والانسان المجتمعي يبقى متحركاً ، في

البدء ، بدافع الغرائز الحياتية ؛ والثقافة هي التي تتولى بمؤثراتها ترويض النزعات المباشرة ، ومراقبتها ، واخضاعها لضرورات الحياة في المجتمع . وبين هذه الغرائز « الشهوة الجنسية » ، التي لها الوظيفة الأساسية . ولقد كان فرويد دائماً يمنح الشهوة الجنسية امتيازاً ، بعد أن حاول ، وقتاً طويلاً ، أن يجعلها المحرك الوحيد ؛ وهذا التشديد على أثر الشهوة الجنسية ، هو الذي كان السبب في فقدان يونغ وأدلير هويتيهما . وهناك اندفاعات أخرى عمياء عضوية ، تبقى تابعة الشهوة الجنسية ، اعترف بوجودها متأخراً ، كغريزتي الموت والحياة .

— ثالثاً : مبدآن أوليان عرقيان وسوسيولوجيان : الانسانية كائن جماعي لها وجود خاص نستطيع معالجته ككائن فردي . فالطقوس الدينية ، والأخلاق ، ومؤسسات الكائن المجتمعي كلها تؤلف المناخ المجتمعي المشتمل على العصبيات ، والمعارضات الضمنية ، وعُقد الفرد . وأخيراً ، ان حادثاً تقره المجتمعات البدائية ، يمكن ألا تقره المجتمعات المعاصرة ؛ وبتعبير آخر نعني أن العواطف ، التي كانت فيما مضى وليدة مفاهيم المجتمعات الأولى ، هي اليوم مرفوضة ضمنياً بسبب سيطرة الميزات النفسية المستحدثة على الانسان المعاصر .

من خلال هذه التوطئات الاستنتاجية ، ولا سيما الأخيرة منها ، نميز باعجاب ، هذه الطريقة الفرويدية التي لا تلتوي ، وبها

ينقل من الفرد الى النوع ، معتبراً النوع أيضاً كالفرد . والواقع أن فرويد يجمع النوع البشري في كائن بشري كان يتتبع تطوراً في مختلف مراحل العمر : ففي الحداثة تلقّى هـذا الكائن بعض الصدمات الموجعة ، كموت أبٍ ، مثلاً ، ولكنها صدمات رفضها ضمنياً عندما بلـغ سن الرشد ، والانسان المعاصر إنسان راشد يحمل في ذاته كل وصمات التطورات المتدنية التاريخية التي عرفتها الانسانية في حداثته . والمبدأ الأول الذي يرتكز عليه فرويد ينتهي الى اندماج المجتمعات البدائية في طفولة الانسان . فالأخذ بأساليب السلف يجدد طفولتي النوع والفرد ، في آونة واحدة . فلا يبقى إلا أن نماثل ما بين هـذه التطورات المتدنية في الفرد والنوع : هنا ، في هـذا الموقف ، يتدخل كبار الكلاسيكيين من علماء العرقية ، الذين يحملون الى فرويد ، دون شك ، سلسلة من المعطيات التي تبدو أنها مقيسة لتُستخدم في تحليل الأمراض النفسية . وهكذا نستطيع أن نتساءل عما كان بالإمكان أن يحدث لو أن مؤسس تحليل الأمراض النفسية لم يجد تحت تصرفه التجديدات الكبيرة في الأبنية التطورية ؛ أي لو أن مواقف بواس ، التي عُرفت عنه في النسبية والتمردية ، وكانت أوروبا قد قبلتها قبولاً واسعاً ، ابتداء من سنة ١٩٠٠ ، أو لو أن علماء الارتقاء بالمقارنة ، كانوا قد سبقوا علماء الارتقاء التطوري ، فماذا كان يمكن أن يكون

من أمر فرويد ؟ ما كان سيحصل ، بلا ريب ، هو الوصول الى نظرية التحليل النفساني في تاريخ الثقافة . هـــذه هي اذاً التجديدات العظيمة في الأبنية التطورية ، التي استعاد فرويد العمل فيها فجدد تفسيرها بالاستناد الى المعطيات المتوفرة على مستوى التحليل النفساني الشخصي .

ان الخطوط الرئيسية ، من هذه المحاولة ، المتلاحمة مـــع تفسير الانسان المجتمعي ، هي التالية : السبب المركزي حادث « سابق الوجود » ، ومن النظام التاريخي ، حصل في وسط شراذم من النـــاس البدائيـــين ، المتمركزين تحت سلطة الأب ، المتملك احتكاراً على نساء الجماعة . وكان أن ثار الأبنـــاء على سلطة الأب ، فقتلوه . ومن ذلك الحين تعيش البشرية في جو جريمة القتل هذه ، المرفوضة ضمنياً ، ولكن طقوس القربى نقلتها الى جو العصر. وبعد مهاترات أعقبت مقتل الأب ، جاءت معاهدة سلام تتدخل لتضبط الغرائز الانسانية وتبني نظاماً : من هناك بدأت المراقبة المنظمة. ومن هناك جاءت القوانين المفروضة على الجميع : تحريم الزواج بين أقارب الخط الواحد ، والزواج من بنات خارج القبيلة . وهكذا يعود الأب القتيل حياً في رمز « القرابة بالمشابهة » ، « التوتيم » ، وفي منع القتل ، والأكل ، الا في حالات من المؤاكلة الاحتفالية . وبفضل هذه التدابير الشاذة يحتفظ الانسان بذكرى الحادث ، وبفضل هـــذه الذكريات الدورية

الطقسية ، تبقى في ذاكرته .

إن فرويد يطبّق على الجماعة المعطيات الفردية التي يقدمها علم النفس : فالمحرمات ديناً « التابو » تؤلف انضباطية ، مبرر وجودها قائم في أنها وليدة ارادة مفكرة وليست وليدة ميول عفوية ، وهي تهدف الى مراقبة رغبات الكائن البشري في عمق أعماقها . ولكن هذه الرغبات ليست ذات معنى واحد في كل الملابسات : فالكائن البشري يريد ولا يريد ، في آونة واحدة . والطقوس الدينية ما هي غير انعكاس لهذه الازدواجية الاساسية القائمة في متناقضين ؛ وهكذا تبدو الحال في طقوس المآتم ، فصفة القرينة تشتهي موت الآخر وفي الوقت نفسه تأسف عليه ، ولهذا يعاقب القرين نفسه بفروض الحداد ، وهي عقوبة نستطيع ان نقول فيها انه يحتمي بها منها . ومثل هذا يجري لكل الاندفاعات الغريزية العمياء ، فانها على الرغم من ملابساتها وغموضها ، أفسحت مجالاً لحوادث تاريخية ؛ ومن خلال هذه الحوادث تستمر ذكريات الاندفاعات وتستمر مراقبتها ، في حين واحد ؛ وعلى ضوء الاستمرار التذكاري والرمزية تسهل المراقبة ، ومن الجدير بالذكر ان هذه المزاعم التاريخية نفسها هي موضع الضعف في النظام المعني . ومن ازدواجية المتناقضين في الرغبات يتولد فقدان التوازن في التحليل النفساني ، لأن الكائن البشري يلاصق شهوته ويخجل

بها في وقت واحد . وهكذا نرى ان المحرمات والدينيات ، في المراقبة ، هي بمثابة آليات تأمين قادرة على اعادة قيام التوازن.

ومما تقدم نستخلص ان فرويد نسب الى العرقية أهمية خاصة ، ولكن لأسباب قلما تثبت في المناقشة. وأبرز ما يوجب تقدير فرويد واعلان استحقاقه ، هو ، دون شك ، خارج اكتشافه اللاوعي ، في عمله الكاشف عن أهمية الشهوة الجنسية في العلاقات البشرية ؛ ولكن خطأه الاكبر هو في أنه ركز كل الوجود البشري على هذا القطب ، وانه فسر كل عمل اجتماعي على أساس عمل هذه الغريزة وحيدة . هناك مشغلة حقيقية للبال ، يمكن أن نقول عنها ، دون أن ننتقص من احترامنا فكرة المعلم ، انها مبررة وجود علم التحليل النفساني لأن هذا الحب للانماء الغريزي ، لا يظهر ، في أي مكان آخر أفضل منه في كتاب « علم النفس الجماعي وحب الذات » . فالمؤلف فرويد يحلل فيه ، بشكل خاص ، المبادىء الفاعلة المسيِّرة أعمال مجتمَعَين ، أعيد تنظيمهما بموجب علاقات اندماج غير صلات القرابة : هما الكنيسة والجيش . وفيه يعيد كل العلاقات الى الشهوة الجنسية ، ولكن ، بما أنه لا يستطيع أن يلاقي قوى اجتماعية مختلفة ، اي شكليات فئوية مجتمعة في تسلسل وتعاون رأى نفسه مُجبراً على ان يقترح مبدأً جديداً ، يبدو انه ينكر ذاته ، هو مبدأ « الشهوة المغايرة الجنس » ؛

فيمثل عليها بشعور صداقة مذكرة تصبح في حقيقتها تعبيراً عن شهوة جنسية مضادة الحيوية ، ومنقولة الى غير مكانها ، تنمّ عن حب مترفع . ومع هذا فان فرويد حلـل ، بشكل جديد ، الحركات الآلية الكائنة في أساس كل اندماج مجتمعي . وأشار كذلك ، الى الأهمية التي يجب ان نعيرها ، في بناء العلاقات بين اعضاء المجتمع المتشابك في أسباب عيشه ، كما أشار الى المفاهيم مثل مفهوم « ازدواجية المتناقضين » ومفهوم « التماثـــل » . ولكن هذا الجهد المغري ، الى جانب مغالطاته ، يخـــرج من دائرة البحث العرقي . غير أننا لا ننسى أن نتذكر كيف يمكن ان نجمل آثار فرويد الأخيرة في أفضل مواقعهـــا من الانتروبولوجيا : في معالجته تفسير الحوادث الدينية .

نجد هذه المعالجة في كتابه « مستقبل وَهْم » ، ذي العنوان المبهم، نظرية دينية في حدود من التوضيـح . فالدين ، في نظر فرويد ، أداة دمج اجتماعي وتقنية معمقة قادرة على ان تطمئن الإنسان القلق على عجزه أمام قوى الطبيعة . واذا استخدمنا تعابير ليست لفرويد ، يمكن أن نقول انالدين يحتمل وظيفتين؛ فهو ، في آونة واحدة ، دواء ومنعش ؛ دواء بصفاته الحقيقية يقطـّر في جسم الجماعة مبدأً موحّداً جديراً بأن يلاشي القوى المحورية في الانسان : فوحدة الجماعة يشدها الإيمان المشترك ، وهو الذي يسيّر عجلتها التأسيسية في عملها ويؤمن لها بقاءها.

والدين هو المنمش الأكبر ، دون أن تكون له صفـــة المعالجة الطبية بوضعها الحقيقي ؛ ولذلك يستعمل فرويد كلمة « وهم » وفي مثل هذا القصد المعنوي استعمل كارل ماركس كلمـــة « أفيون » . وبما أن الدين يقوي الانسان على مخـــاوفه أمام قوى الطبيعة ، يقول كاردينير وبريبل ، حديثاً ، في هـــذا الصـدد :

« في تشخيصه هذه القوى ، قوى الطبيعـــة ، وفي تحويله اياها الى جراثيم حياة ، كما تفعل الآ لهـة ، يكتسب الانسان تقنية تساعده على مجابهتها والتغلب عليها ، وفي بعض الظروف على مراقبتها بشرياً . ويظهر فرويد أن الوسائل التي كرسهـا الدين لتهدئة الآ لهة أو تحريكها ، لا تخرج عن كونهـا شبيهة بالوسائل التي يستخدمها الولد في تهدئة أبويه ، ولكي يستثـير عطفهما ، وحمايتهما الدائمين ... وهنا كانت اكتشافات فرويد الكبيرة : في الوسائل التي يستخدمهـا الانسان للمراقبـة ، ولتحريك الآ لهة أو تهدئتها، هذه الوسائل التي اكتسبت نماذجها الأول في اختباره من تجربة الابن مع أبويه » .

وهذان المؤلفان ، لاحظا بدقة ، ان فرويـد تـكلم للمرة الأولى ، على مجموعة عناصر الطريقة الإسقاطية التي تنقل قاعدة تصميم الى تصميم آخر : فالكشف عن حقيقة هذا العالم والخطط المعمول بها في مراقبته قائمة في ارتباطها بالوقائع البدائية ، وفي

هذه الآليات الاتصالية القائمة في اللاوعي عند البشر . ولقد أجبر فرويد ، في كتابه « مستقبل وهم» على أن يجيء بمصحح لهذه القدرة الكلية التي نسبها الى الشهوة الجنسية ، معترفاً بوجود اندفاعَين عضويين حتميين : « غريزة الحياة» و « غريزةالموت»: « فكل شهواتنا المكبوتة ، التي نخجل بها والتي ندفع بها الى اللاوعـــي ، تنتهي الى انقباض ؛ والمحرم ديناً ، والزاجر الاجتماعي او الضمير الخلقي الذي يعبّر عنهـا ، كلها تجتمع في ردة فعل ضد هذه الشهوات التي لا يقرها الشرع . ومن اجل ذلك ، نرى ان القواعد الاجتماعية الاساسية تُلقي لنا ضوءاً على النزعات التي نرفضها مجتمعياً . وان ما يحرمه علينا المجتمع هو ما نشتهيه دون ان نعترف بذلك » . والعرقية التي تكشف لنا عن هذه التطورات البشرية ، في بداهة الحال عند البدائيين ، وتحت شكل محرمات دينية ليس لها تفسير في ظاهرها ،تجعلنا نلمس باليد ما يخفيه اللاوعي . وهذا ج. كازينوف يضيف الى ما تقدم :

« كان يريد أن يكشف عن ان تاريخ الانسانية مثل انعكاس الطفولة عند كل شخص ، وانه يمر بالمراحل التطورية نفسها ... وافتراضه كان يتناول المجتمعات البشرية الاولى ، ليخلص منها الى ان مجموعة العناصر التي تألفت منها عقدة اوديب كائنة في كل منا ، في شكل انعكاس » . ولكن مهما تكن الانتقاصات

التي تنال من فلسفة فرويد، فإن امثولته الكبرى تبقى، كسباً هاماً لمبادىء العرقية .

٩ ـ من علم النفس الى العرقية :
أول علماء الشخصية الانسانية والنموذجية السلالية

ان نشر بعض المؤلفات القيمة ، بين السنة ١٩٢٠ و ١٩٣٢، جاء في مطلع النزعات الجديدة ، هادفاً الى استخلاص مبادىء التنظيم المجتمعي ، مشيراً الى النوعيات الثقافية : إذ لم يعد من الضروري الاجتهاد في ايجاد « قوانين » عامـة ، وفي البحث الوهمي ، ولكن اصبح ضرورياً ان نفهم ماهية الأسس الـتي يقوم عليها كل مجتمع ، وفي جماعيته الخاصة ، وان نتبين شكلية بنائه . ومع الحركة انتشرت ، في الغالب ، خـــارج المرحلة الزمنية التي نتناولها بالدرس ، فإن أسسها تركزت وتوطدت في مؤلفات العالم الاجتماعي واللغوي سابير[1] ، والكتاب الأول الهام لِـ مارغريت ميد ، مجيء عصر في ساموا اي في ارخبيـــل اوقيانيا ، وتحقيقاته اللاحقة . ثم مؤلفات روث بينيديكت ، ثم عقبت هذه مؤلفات عصبة كاردينار ــ لينتون .

والحقيقة ان هذه المحاولات ذات الميزات العلمية النفسانية التي تتناول نماذج مجتمعية تعود ، في اول امرها، الى فروبينوس

١ ـ « اللغة » ١٩٢١ ؛ « في اللاوعي » ١٩٢٧ .

وبواس . والأول من هذين العالمين كان قد اقترح تصنيفاً يتناول النماذج الثقافية بصورة جريئة وغير دقيقة . أما الثاني، فمع ميله الى التثبت من نوعية الثقافة، ساعد، مسبقاً، الجهود المبذولة في هذه الطرق التي وجدت مع روث بينيدكت من يوضحها .

ان الصورة التي قدمتها بينيدكت معقدة . فمؤلفة « قادة الثقافة » كانت شاعرة اميركية ، نشرت تحت اسم مستعار « أنّ سنغلتون » . غير أن محنتها المزدوجة : صممها وعقمها ، ساعدت على عزلها عن العالم ، واعطائها شكلاً خاصاً ، كانت تخفي وراءه حيوية عاطفية كبيرة . وقد درست روث بينيديكت الانتروبولوجيا مع بواس وكروبير . انها لم تكن قط ، كما يبدو ، محققة على الارض المعنية بالدرس ، وعندما قامت بأول تحقيق شخصي ، عند جماعة من العائشين على التقاليد القديمة ، كانت بلغت الخامسة والثلاثين من العمر . وقد أجرت تحقيقها في صحبة كروبير ، في هنود كاليفورنيا . وعندما شغلت مقعد أستاذ ، في جامعة كولومبيا ، قامت بين ١٩٢٤ و ١٩٢٦ برحلات علمية كثيرة . كما قادت بعد ذلك أبحاثاً متنوعة ، كان في معيّتها فيها مشاركون في البحث ، وقد أجرت أبحاثها وإياهم على اوساط اميركية سكانها من الجاليات الآسيوية والأوروبية ؛ وبعد حين متأخر أجرت أبحاثاً في اليابان.

أما كتابها « قادة الثقافة » فقد التصق مفهوم اسمه باسمها . ولكن مقالة كبيرة سبقت الى الظهور ، سنة ١٩٢٨ ، جمعت

فيها روث بينيدكت النتائج التي استخلصتها من تجربتها في المجتمعات الأميركية الهندية : فكانت تنتظر أن تحدد « نماذج نفسانية » . ولكن كتابها المشهور « قادة الثقافة » ، الذي ظهر ، سنة ١٩٣٤ ، أنزل سعيها العلمي الى جانب من مستوى العامة . ومن تجربتها اليابانية خرج كتاب آخر عرف نجاحاً خالداً : « السيف والزهر » . وقد تُرجم كتاب «قادة الثقافة» تحت عنوان باهت : « نماذج مدنيات » .

وبما أن روث بينيدكت تلميذة وفية لبواس ، فانها ألحّت على توضيح النسبية الثقافية : فالمجتمعات البشرية تتألف من نوعيات لا تُعد ولا تحصى . ولكن هذه النوعيات يمكن ردها الى نماذج مميزة بصفات غالبة : « ديونيزية » أي مستضعفة ومتطرفة ، و « أبولونية » أي متناسقة ومتزنة . وهكذا تبدو محاولة استخلاص قوانين ، ضرباً من الوهم ؛ فالممكن هو وصف الملامح الثقافية ، لأن وجوه الشعوب متباينة الأشكال والاوضاع كما أن وجوه الناس مختلفة الألوان والأشكال ؛ وكذلك لكل ظاهر من الشكل معنى في المضمون .

أما مشاركة الطبيب النفساني ، كاردينار ، والعالم العرقي لينتون ، فما توطدت أركانها إلا مدة ثلاثين سنة ؛ لذلك نذكّر بأن رالف لينتون ، بعد اشتغاله سنتين في مداغشقر ، نشر كتابين ركز فيهما وجهة نظره الخاصة وطريقته ، ولا سيما في كتابه

الثاني ، الذي جاء نتيجة تحقيقات أجراها في سنتي ١٩٢٧ و ١٩٢٨ ، وهو في حقيقته تحليل ضميري كما أنه عمل كلاسيكي وتجربة في تماثل الطبقات الثقافية ، يأخذ مكانه في خط الباحثين الملتزمين أن يستخلصوا في الغالب، القيادات ذات المفاهيم المعنية.

وفي رأي كاردينار ولينتون ، أن لكل مجموعة ثقافية نهجاً نوعياً يميزها ؛ فالشخصية الانسانية القاعدة ، هي صيغة مكونة من مركب : من نزعات ، واندفاعات عضوية عمياء ، وقرائن مميزة، كلها غير قابلة التفكك ، يفرضها العُرف الجماعي على الفرد. وهكذا ينطبع الفرد بالملاءمة المحلية ، ويتقيد بالأعراف البيئية التي يستلم زمامها قائد الجماعة الثقافي ، فيبدو الفرد مميزاً بهذه المنهجية البادية عليه علاماتها الفارقة . واذا حدث ، لسبب أو لآخر ، أن أخِل بهذه الملزمات المنهجية ، أو أن فرداً رفض الجماعة أو ان جماعة رفضت الفرد ، وهذا الرفض الثاني ردة فعل للرفض الأول ، فلا بد عندئذ من وقوع اضطراب يعود بالأذى على الفرد وعلى الجماعة . وابتداء من هذه الخطوط الرئيسية ، يستطيع كل فرد أن يرسم التغيرات الخاصة مرة واحدة ، وهذا ما يعني أن هذه الخطوط الرئيسية ليست شيئاً جامداً : فالشخصية الانسانية القاعدة تتطور مع الزمن، ولكن تطورها بطيء عادة ، يجري دون الخروج عن مألوف المجتمع الا في حدود معينة ، واذا حدث أكثر من هذا، فعندئذ يبتدىء

الخروج على المجتمع أو الخروج عنه ، على الأقل . وهـــذه الشخصية تُدخل على المجتمع أساليب الانضباط الأساسية ، التي تروض الغرائز التي نصتها الطبيعة . ولكن ترويضاً كهـــذا مبهم التوجيه ، يحتمل مظاهر إثارة كما يحتمل مظاهر تأمين. فالاثارة تحدث لأن الفرد المحروم من مؤاتيات الحياة ؛ الـــتي تقتضيها نزواته العضوية الغريزية ، يجد نفسه في حالة حرمان؛ والحماية تنتظر ، لأن واجباً من واجبات المراقبة المجتمعية كائن في تغطية العجز الذي يقع في الأمن المطلوب من المجتمع توفـيره للفرد . وهكذا تنشأ الصلة القائمة بين الثقافي والطبيعي .

والنطاق الثقافي يُعد الشخصية القاعدة من واقع الأجزاء لا بل الاضلاع التي يتألف منها ، والتي تسمى « مؤسسات أولية» وفي عُرف كاردينار ولينتون ليس لها القصد المعنوي الموحـد إلا عند الماركسيين .وهذه الاضلاع تشتمل على كل الجهاز التربوي، علاوة على الوسط التقني الاقتصادي، وبشكل أوسع تشتمل على كل المتوفرات التأسيسية، وتسهم في تنشئة الولد والمراهق ، فارضة عليه بحكم الممارسة ،أساليب من التصرف الحياتي لا تلبث طويلاً حتى تصبح تلقائيات . وبفضل هذا النوع من التهذيب الانضباطي الابتدائي يتلاءم الفرد ومحيطه الثقافي ، ويكون ذاته بمراحل تطورية ، هي في قسمها الأكبر ، لا ضميرية . ولكن هـــذه السببيات ، في بدء امرها ، تُعتبر صادرة عن عقل : لأن الفرد يُعقلن محاولته تأمين اندماجه الضروري ، ولكن الأساليب

والوسائل التي يضعها موضع التنفيذ تبقى لا واعية .

١٠ ـ من السوسيولوجيا الى العرقية :
العرقية الفرنسية

مع أن انطلاقة العلوم العرقية ، في فرنسا ، لم تثبت تحركها جدياً إلا في الثلاثينات ، فان جدول المؤلفات التي تحققت ،قبل هذا التاريخ ، ليس أقل غنى ؛ والفارق هو أن العرقية ، بعد ١٩٣٠ ، أصبحت ، تدريجياً ، عملاً مهنياً ، بينما كانت ، قبل هذا التاريخ ، عملاً اضافياً يقوم به باحثون ينتسبون الى تنظيمات عملية أخرى ، جلبهم علماء نظريون جاؤوا من الصعيد الفلسفي ، أو أصحاب « ولع خاص » ، مثـــل لينهاردت . فأصبحوا مهنيين ، ولكن بصفة متأخرة . وهذه العرقية الفرنسية ، التي جاءت في الثلث الاول من القرن ، كانت ذات شقـين : الشق الأول جاء في الفلاسفة ، والشق الثاني من العمل ؛ فالذين جاؤوا من الابحاث العقلية ، مجذوبين الى الابحاث الحسية والى الحقيقة وليدة الحجة والبرهان والذين جاؤوا من المشاريع التبشيرية أو الاداريــة ، مجذوبين بالحاجة الى المعرفة المجردة عن الغرض ، وبالرغبة في إحداث تنظيم علمي يتناول تسنيد النقاش أو الدفاع الى الحجة والاختبار هؤلاء كلهم التقوا في منتصف الطريق ، بعد أن فهموا نفوسهم فتعاونوا في ما خرجوا اليه .

وهوذا نحن الآن نستعرض ، بسرعة ، الاعمال الأساسية ، دون الرجوع الى مؤلفي القرن التاسع عشر ، الذين درسناهم مع الكلاسيكيين الأوائل ، في ما تقدم .

١ - عرقية الفلاسفة والسوسيولوجيون . — ان الميزة المشتركة عند هؤلاء الباحثين ، هي أنهم لم يعرفوا الأرض المعنية بالبحث . فدوركهيم ، وبوغله ، وليفي - برول ، وموس كانوا في أفضل معنى الكلمة ، علماء نظريين ، ومحللين ، ومهذبي وقائع ولكنهم لم يشتغلوا بأنفسهم في حقل بشري « مُعاش » . لذلك لم يستطيعوا أن يُعطوا عنه درس معلم .

انه لا يجوز ألا نُفسح مكاناً ، في نظرة عامة على الفكر العرقي ، للحصيلة التي جاء بها دوركهيم ، أكبر سوسيولوجي فرنسي . ذلك لأننا نعلم مبرر الأهمية التي كان يعطيها لدرس المجتمعات البائدة . ودوركهيم فيلسوف ، على مذهب كانط ، يأخذ بفعل الأشياء لا بطبيعتها ، وملتزم أساليب المنطق والبرهان ، فكان لا بد له من أن يعير الشعوب البائدة أهمية جدية ، ينتظر من ورائها ، وهو من المقتنعين بالارتقاء التطوري ، حصيلة من المراجع المتناولة البنيويات الابتدائية للمجتمعات البشرية . وقد كتب عنه أ. كاردينار و إ. بريبل ، فقالا : «ان منزلته في الصف الأول من الانتروبولوجيين ، كما هي حاله في السوسيولوجيين » . وله ، خارج أخذه بعقلانية العلوم وبمنهجيتها ،

بصورة عامة ، ما يؤيد هذا الرأي فيه ؛ فيبدو لنـــا أنه بالحقيقة على مستوى مزدوج .

في الواقع ، ان دوركهيم ، بوصفه مؤسساً المشروع العلمي الكبير الذي عُرف بـ « السنة السوسيولوجيـة » ، لعب دور الرائد في تحريك البحث العلمي ، ومن جهة أخرى ، كان طليعة الريادة لمدرسة الارتقاء بالدور الجماعي ، بوصفه مقترحاً جهازاً جديداً من التحليل الاجتماعي ، ولم يكن هذا استحقاقاً قليل القيمة . وتقديراً لهذا الاستحقـاق أدى له راديكليف ـ براون إجلالاً عظيماً . وفي مكان آخر ، في ما هو أبعد مدى ، اقترح دوركهيم ،مبتدئاً بدرسه المعمق«مبدأ المشابهة مع اختلاف الأصول » في الحقل الاوسترالي ، مفهوماً دينياً جديداً . لهذا نعتبر كتابه « الصيغ الأولية للحياة الدينية » ، سنة ١٩١٢ ، من بين كل مؤلفاته ، الكتاب الذي يدخـــل بوضوح نطاق الأبحاث العرقية . غير أن التفسير الذي اقترحـــه دوركهيم لِـ « مبدأ المشابهة مع اختلاف الأصول » يبقى إيحائياً ، دون أن نمسك حساب الأخطاء الواضحة التي ارتكبهـــا ، كقائم براجعات وثائقية من الدرجة الثانية ، لأنه ، في المجـــال التفسيري ، أقل شأناً منه في تفسير العواطف الدينية . ولقـد حدد دوركهيم الدين مبتدئاً بالمقدس ، كعنصر مركزي ، يحدد بدوره مبدأ التحريم ، الذي يعارض الدنيويات ؛ ثم يميز بـين

الايمان والطقس ، أي العقيدة والممارسة . والدين حادث عظيم الشأن والانتشار ، وشامل الى درجة أنه لا يمكن توضيحه بالوهم، أو الحلم : انه حقيقة في الجواب عن حقائق أخرى . شأنه الأساسي تأمين التنظيم الاجتماعي ، واستتباب سيطرة الجماعة على النزعات الفردية الفوضوية . والطقوس ترمز الى قِيم لا يمكن التعبير عنها بطريقة أخرى ولا إثباتها على مستوى غير المؤمن . والدين في نظر دوركهيم شيء بشري لا إلهي ؛ فالجماعة ، دون أن تعرف ، تلقي في مجموعة التعاليم والطقوس تطلعاتها وحاجاتها ؛ فالنقاط الجوهرية من الدين هي ركائز العواطف الجماعية والقوى المجتمعية .

والدين هو « تأليه المجتمع نفسه بنفسه » ، على حد قول غورفيتش ، الذي يضيف قائلاً : « ان دوركهيم يدافع ، في الوقت ذاته ، عن مبدأ جماعية الدين ، لا بأصوله وممارسته فقط ، بل وبمضامينه أيضاً ، وعن كينونة الدين في أساس كل حضارة بشرية » .

اذن ليس من الممكن ان نتتبع الإعادات البنيوية المجانية التي اقترحتها حلولية سبنسر ، وتيلور ، ولنغ ، وروبرت ـ سون ـ سميث ، ولا طبيعية ماكس موللر. فالروح لا تدخل في مفهوم تصورها دون الجسد؛ والحلم ليس له تاريخياً ، الأهمية التي ينسبونها اليه ؛ والمبادىء القائلة بوجود الروح وشفع الروح لم يثبت أنها مستوحاة

من التمييز بين حياة اليقظة وحياة الحلم. والشفع في الحي لا يصير الى « روح » الميت ، الذي يقيمون له طقساً دينياً . ومن جهة أخرى فأرواح الطبيعة ليست متصلة بعبادة الأقدمين . وعبادة الإله في شكل انسان ليست عنصراً بدائياً ، بل على العكس ، شاهد تطور مهذب ، « سمة مدنية متقدمة نسبياً » لأن « الكائنات المقدسة » دخلت مفهوم الإنسان على صورة حيوان او نبات ، لم تستخلص منها صورة الانسان الا تدريجياً .

وفي ما عدا تفسيره المجتمعي لظاهرة الدين ، عمد دوركهيم الى تحاليل عرقية تناولت الجماع بين الأقارب ، سنة ١٨٩٧ ، وأخرى تناولت القربى بالاستناد الى المشابهة ، سنة ١٩٠٠ ، وغيرها أيضاً تناولت القربى ، سنة ١٩٠٤ . وابتداء من أعماله في اوستراليا ، التي تعتبر قمة نتاجه في وضوح الحجة وثباتها في الكلام على البدائية ؛ أخذ مع زميله ، موس ، في طرح قضية الفئات المنطقية ، مستفيدين من دراسة بعض الصيغ البدائيـة المصنفة ، ومساهمَين في دراسة التمثيل الجماعـي ، « السنة السوسيولوجية » ، ١٩٠١ — ١٩٠٢ .

ولقد حاول عدد كبير من الباحثين ، في الحقول المختلفة ، أن يشرحوا الوثائق التي جمعها المنقبـون ، في الارض المعنية ، ولكنهم لم يبلغوا مستوى القدرة الذي بلغه دوركهيم ، من مثل: بوغله ، في « محاولات في نظام الطبقات » سنة ١٩٠٩ ، الذي

أبرز أهمية العوامل الدينية في مجموعة التراث الذي خلّفه ذلك المسلسل من الجماعات المغلقة .

واستمر الواقع الديني النص الرئيسي ، يتركه الباحثون من مثل : شانتيبي ولاسوسّي في « موجز تاريخ الأديان » ، سنة ١٩٠٤ ، ومثل روبير هيرتز ، الذي مات باكراً ، في الحرب ، سنة ١٩١٥ ، في كتابه « مزيج من السوسيولوجيا الدينية والفولكلور » وهو كتاب نشر عام ١٩٢٨ بعد وفاة مؤلّفه . وبول فوكونّه ، جاء دارساً موضوع كتابه « المسؤولية » سنة ١٩٢٠ ، ومحللاً التأثيرات المتبادَلة بين السحر ، والدين ، والاخلاق . أما بول هوفيلان ، وهو رجل قضاء ، فقد عمل على صعيدَي العرقية والحقوق ، متناولاً العلاقات بين صيغتي الأمر بين القضاء والسحر ، في كتابه «السحر والحقوق الشخصية » ، مظهراً كيف أن الأساليب السحرية ، بمالها من استجابة خاصة ، تولّد قانون الحق في الانضباطات الجماعية وتؤدي تدريجياً الى التمايز الفردي في موضوع القانون .

وأما مارك بلوش ، صاحب المؤلفات التي تتناول العرقية تحت مختلف من العناوين ، فقد كشف عن الصلة التي توحد السلطة والدين ، مع دراسة كلاسيكية موضوعها « ملوك صانعي العجائب » كما انه درس عرقياً « الميزات الأصيلة في تاريخ الريف الفرنسي » . وهذه الصلة الجامعة نفسها نجدها في مؤلفات دافي ، في

مثل كتابه « الايمان المقدس » سنة ١٩٢٢ ، والكتاب الآخر الذي اشترك في تأليفه أ. موريه ، يتحدثان فيه عن الانتقال « من القبائل الى الامبراطوريات » ، سنة ١٩٢٤ ؛ وفي الكتابين نجد التبيين الموضوعي لا يتعدى كونه مخططاً موضوعياً الا قليلاً. غير أن المؤرخ والسوسيولوجي ، لويس جيرنه ، فقد حلل هذه الصلة الجدلية في « الفكر القضائي والخلقيات في اليونان » ، وفي كتاب آخر أسماه « العبقرية اليونانية في الفن والدين » .

وإذا نظرنا الى المؤلفات العرقية التي وضعها لوسيان ليفي — برول ، نجدها كمؤلفات دوركهيم ، لا تخرج عن كونها جزءاً من تفكير فلسفي . وقد سبق أن صادفت إقبالاً عظيماً ، ولكنها اليوم تشكو انتقاصاً في تقديرها لا نرى له مبرراً ، مثلما حدث لمؤلفات فرازير ، ولأسباب غير محقة أيضاً . ولعل هذه النكسة ناتجة عن كون المؤلفين الباحثين ، لم تتناول رؤياهما غرضها الا من خلال وسيط بينهما ، وهكذا كانت الرؤيا تخاطر بأن تكون لها صورة مشوهة عن الأصل » . وعلى الرغم من هذا ، فقد كانت طريقة ليفي — برول ملائمة موضوعها ملاءمة تامة . فإنها قائمة ، حقاً ، في معرفة نوعية تنظيم قيم الفكر القديم البائد ، لتصبح علماً يدعى علم الأخلاق ، وتجرب ان تفهم الحركات العقلية في جانبي « الموازنة » الغربية . من المعلوم ان ليفي — برول وضع النقاط على الحروف ، في معظم مؤلفاته ، عندما

تناول اختلاف الطبيعة بين نموذجين فكريين ، ومظهر « الذهنية البدائية قبل عهد فلسفة الأخلاق ، ذلك لكي يتجاوز ، بالتالي ، هذه المعارضة ، معترفاً بأنه اذا كانت ثمة طريقتان للتفهم ، فانهما كانتا قابلتي الاتحاد بقلب كل ثقافة ، في كل عصر ، وحتى كل فرد . ولم تكن المفارقة بين مجتمعين شيئاً من نظام الطبيعة ولا النوع ، بل كانت من نظام الثقافة والكمية : كالتحقيق الميثولوجي السابق عهد المنطق ، الذي كان موجوداً في قلب كل انسان مع جانبي « الموازنة » الديكارتية . فالمفارقة ، اذن ، قائمة في تبادل اللجوء الى هذا أو ذاك من النموذجين اللذين يتناولهما التحقيق بنسبة ما تكون المفارقة بين مجتمعيها .

وقد توصل ليفي – برول ، بعد إجراء تحاليله الكلاسيكية الخلقية ، معتمداً تطرق فكره طبيعياً ، الى تركيز فكره في المجتمعات البدائية ، التي كانت تقدم له نوعاً من المختبرات . وكان أن فرغ من وضع كتب كثيرة ابتداء من سنة ١٩١٠ ، مع « الوظائف الذهنية في المجتمعات المتخلفة » ، الى نشر « مفكرات » بعد وفاته سنة ١٩٤٠ ، يؤكد فيها ، بعد افتراضاته الازدواجية لمبدأ « الثنائية » ، الوحدة القائمة أساساً لعلم التحليل النفساني الانساني ؛ وحتى سنة ١٩٣١ ، لا نجد ، من المنشورات ، في هذه الدائرة من الابحاث ، غير الكتب التالية : « الذهنية البدائية » ، سنة ١٩٢٢ ؛ و « الروح

البدائية » ، سنة ١٩٢٧ ؛ و « الخارق والطبيعي في الذهنية البدائية» ، سنة ١٩٣١ . وبعد هذا التاريخ ظهرت الميثولوجيا البدائية » و « الاختبار الميثولوجي والرموز » .

أما مارسيل موس ابن أخ دوركهيم ،وتلميذه الذي نشر قليلاً ولكنه أوضح فكرته في مذكرات ، ومقالات ، وأبحاث منهجية ، فقد تميز بصفته معلماً . وهو بحق منشىء شخصيات أكثر العلماء العرقيين الفرنسيين المنتسبين الى الرغيل الأول من الممتهنين العرقية . وقد نشر ، أول الأمر ، بالاشتراك مع ه.هوبير كتاباً اسمه « محاولة في الذبيحة »[1] و « مخطط نظرية عامة في السحر »[2] و « أخلاط من تاريخ الأديان » ، سنة ١٩٠٩ . وقد أعطى في ما بعد ، في سنتي : ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ ، لـِ «السنة السوسيولوجية » التغيرات الفصلية في المجتمعات الاسكيمية ، حيث يبين كيف أن علم الهيئة الجماعية والتنظيم المجتمعي هما في مبلغ تأثر الاحياء ببيئتهم طبيعياً . ولكن عمله الأكبر هو كتابه « محاولة في الطاقة العطائية وصيغة التبادل المجتمعي البائدة»[3] ولم ينسَ أن يذكر كيف أن المتزوج حديثاً كان عليه أن يقدم الى عائلة حميه تقدمات اقتصادية ، منوهاً بما يمكن أن تشتمل

---

١ ـ السنة السوسيولوجية ، ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ .
٢ ـ » » ، ١٩٠٢ .
٣ ـ » » ، ١٩٣٢ ـ ١٩٣٤ .

عليه تلك العطايا من معنى سحري ، فهي لا تُعتبر شيئاً جانبياً، لأنها ، بالتالي، تستتبع تبادلاً لها يفسح مجالاً للتبادل المجتمعي. والواقع الاقتصادي ، بالحقيقة ، يخفي وراءه كثيراً من أشياء أخرى غير المحتوى الاقتصادي ؛ فهو يحمل في ثناياه مزاوجات اجتماعية . وهكذا جاءت كل الدروس التي قام بها موس أضواء كاشفة وصيغاً من الكلام زاخرة بالحياة . ولقد أعانته انفتاحة عقله على تفهم كل الحصيلة التي جُمعت لتفسير العرقية ، والتي كثيراً ما طبقها على التاريخ وعلى الحقوق كما طبقها على علم النفس الكلاسيكي . ولكن حصيلته ، البادية في دراسته الطاقة العطائية ، نتجت عن معرفة تحديد الوقائع ضمن اطار النظرة الجامعة ، حيث بها يمسك المؤلفون . وهكذا كان موس يعيد الأحداث الى وضعها داخل المجتمع ، بصورة كلية : مركبها العضوي ، ومجملها المعنوي ؛ فالواقع الاجتماعي الكلي هو الحقيقة وحدها ، لأن العناصر الجزئية التي يمكن أن نتعرفها ، في مختلف المستويات ، تكون مختلفة الشكل أو مجتزأة ، من حين خروجها من داخل الشبكة التي هي جزء منها ، تلك الشبكة التي تستطيع وحدها أن تعطي ، من ضمنها ، معنى كل جزء منها .

٢ ـ عرقية الممارسين. ـ إن الأسماء الكبيرة التي استحضرناها، هي أسماء لباحثين لم يقوموا قط بتنفيذ تحقيق محسوس واحد ،

بأنفسهم مباشرة . والمدهش ، في الأمر ، ألاّ يكون الاحترام الذي نكنه لهم مستحقاً : لأن بحثهم ، وكله موضوعي مأخوذ بالعواطف ، أوكل الى الامانة العقلية أن تتولى أمره .

وثمة باحثون آخرون تناولوا عملياً العالم والناس قبل أن ينصرفوا الى تهذيب اختباراتهم المعاشة . هؤلاء عددهم قليل ، ولم يأخذوا في الازدياد إلا ابتداء من سنة ١٩٣٠ ، أي عندما توفرت عدة الباحثين العرقيين ، ولكن حصيلتهم بقيت فريدة الخصائص ذات شأن كبير . نتحدث أولاً عن واحد منهم ،كان ذا قدر كبير في الادارة والتنظيم ، ُيفرد له فيهما مقام خاص ؛ لأنه مع معرفته جيداً الحقل المعني بالدراسة ، لم « يطبّق » معرفته في الغالب ؛ هذا الاداري المنظم هو بول ريفه ، طبيب تولى ، بحكم مهنته ، كرسي الانتروبولوجيا في المتحف الطبيعي في باريس ، فكان خالق « متحف الانسان » ، الذي شاركه في رؤيا استحداثه لوسيان ليفي- برول ومارسيل موس ،ولكنه أوجده وحده . كان ريفه ، في الوقت نفسه ، عالماً في مفارقات البنيات المجتمعية ، (فنحن مدينون له بدراسات تناولت استطالة الفكين الى الامام ، ١٩٠٩ - ١٩١٠) ، كما هو عالم بالشؤون الاميركية ، مشتغل باللغات والأثريات والعرقية عامة ، واخيراً ، رجل الحيوية الذي كان عند أساس برامج للبحث متعددة . ونذكر المؤرخ مارسيل غرانه ، الذي لم تمتد

اقامته في الصين إلا بضع سنوات ، ولكنها كانت كافية ليحرز خلالها خبرة بثت الحياة في الوثائق التي استخدمها ، بالصفـــة نفسها ، التي أفاد منها في ملاحظاته على كتبه المختلفة ، التي منها: « أعياد الصين وأغانيها القديمة » ، سنة ١٩١٩ ؛ و « وتعــدد الزوجات والزواج من أخت الزوجـــة المتوفـاة ، في الصين الاقطاعية » ، سنة ١٩٢٠ ؛ و « دين الصينيين » ، سنة ١٩٢٢ و « الحضارة الصينية » ، سنة ١٩٢٩ . وبعد هذه الكتب ، نشر تحليلاً شيّقاً ، يتناول علاقات القرابة .

أما الممارسون الحقيقيون فهم أولئـــك الذين مارسوا في مغترباتهم ، وراء البحار ، وظيفة معينة ، ولكنهم عرفوا معها أن يتحسسوا الى عمق أوضاع المجتمعات التي يعيشون فيها : مبشرين ، واداريين ، وضباطاً. وعلى عكس ما يظن ، فعددهم كان كبيراً ، ولكن حصائلهم جاءت متفاوتة القيـم . فطرق البحث العرقي تقدمت كثيراً ، وثمة ميل ، اليوم ، الى الحط من قيمة هذا العمل الذي قام به « استعماريون » ، خالطين ، قليلاً ، التصاميم بمجموعة النصوص العامة ، ملحقين بها تشويهاً يضربون عهد الاستعمار ، دون أن يفهم هؤلاء المشوّهون أن أولئـــك الممارسين قد أنقذوا عدداً كبيراً من الوثائق ذات القيمة الكبيرة. وحتى اذا كانت هذه المواد ، غالباً ، غير تامة أو سيئة التفسير ، فإن ذلك لا يمنع من أن تبقى على الاقل ، شاهد وقائع مجتمعية ،

أصبح أمر معرفتها مستحيلاً عن طريق البحث عنها على الأرض التي جرت عليها . أما أولئك الممارسون ، فقد كان بينهم عدد من العلماء العرقيين الكبيري القيمة ، مثـــل : لينهاردت ، وديلافوس ، ومونتيل .

إن مؤلفات موريس لينهاردت ، في كاليفورنيا الجديدة ، مشبعة بتجربته كمبشر ، تلك التجربة التي قاسم فيها أهل تلك البلاد معيشتهم ، ولغتهم ، وعواطفهم ، ومنافعهم ، في أوائل القرن العشرين . فقد تغلغل بشكل حميم في مجتمعهم وتفكيرهم ككاليدونيين ، متجاوزاً المستوى الذي وقف عنده سابقاه : سبيزير وسارازين . أما مؤلفه الاول الذي صدر ، قبل سنة ١٩٣٠ ، فقد كان تعليلاً أولاً للملاحظات التي عاشها ، أسماه « مفكرات في العرقية الكاليدونية الجديدة » ، سنة ١٩٢٥؛ ولقد أسف على هذه التسمية التي كان يود أن يختار بدلا منها « المجتمع الكاليدوني » . وكان دخول لينهاردت هذا الحقل من العلم دون تقنية خاصة به ، فكان يعمل بهدي قلبه أكـــثر منه بعقله ، ولكنه ، مع ذلك ، استطاع أن يكون عالماً عرقياً مدهشاً . وعندما دعاه ليفي-برول وديفيه الى العمل معهم أصبح عالمـاً عرقياً ممتهناً . ولكن حالته استثنائية . وقد عرفنـا غيره ممن عملوا في العرقية ، وغالباً ما أبدعوا في عملهم ، ولكن دون أن يحملوا هذه الصفة . واننالنكتفي بذكر بعض أسماء المؤلفين

وبعض كتبهـــم : غوديفروا ـ ديمومبين مؤلف « المؤسسات الإسلامية » ، سنة ١٩٢١ ، ومونتـــاني ، الذي طبع دفعة واحدة ، سنة ١٩٣٠ ، كتابيه : « البرابرة والخزينة »المخزن[١] و « القرى والقصبات البربرية » . وفي افريقيا ، بعد « مملكة الداهومي القديمة » ، سنة ١٩١١ ، تتركز ، في الظهور تباعاً سلسلة من مؤلفات إداريين وضباط : ديلافوس مؤلف «السنغال الأعلى ـ النيجر » ، سنة ١٩١١ ، وكتاب « حضارات زنوج افريقيا » ، سنة ١٩٢٥ ، وكتاب « الزنوج » سنة ١٩٢٧ ؛ ثم لويس توكسيه في كتابه « أسود السودان » ، سنـــة ١٩١٢ ، وكتابه الآخر « ديانة البامبارا » سنة ١٩٢٧ ؛ وهذا الكتاب ُوضع في موازنـــة مـع الأبحـاث المعمقـة لبعض قدامـى الفلاسفة السريين في افريقيا ، فأظهر فائدة كتب المؤلفين السابقين وحدودها التي لم تبلغ سوى فلسفة قديمة ُيخاطب بها الناس علناً. ونذكر بول مارتي ومؤلفاته في الاسلام ، وأخيراً، نذكر هنري لابوريه الذي نشر كتابيه ، سنة ١٩٣١ وهما « قبائـــل الفرع اللوبي» ، و«الماندنغ ولغتهم » ثم نذكر ج. هـ. لوكيه الذي نشر سنة ١٩٢٦ ، « الفن الكاليدوني » . وفي سنة ١٩٢٨ أصدر أ.

---

١ ـ اسم يطلق في مراكش والمغرب الاقصى على دار الحكومة عامة او الادارة المالية خاصة ، يرادفه بيت المال او الخزينة . وقد كان هذا الاسم يطلق على فرقة من الفرسان يقدمها بعض القبائل في الجزائر . (المترجم)

و غ . غرانديديه كتبها : « العرقية » و« الجـزء الرابع من تاريخ الفيزياء والطبيعة والسياسة في مدغشقـر » . ونستطيع أخيراً ، أن نشير الى انه سنة ١٩٢٨ نفسها ،ظهرت « المملكة الاشتراكية عند الإنـكا » للويس بودين ، و « العرقية الفرنسية السويسرية » و « الحضارة المادية عند قبائل توبي ـ غوراني » و « ديانة التوبينامبا » .

أما أعلام العرقية الفرنسية المعاصرة،فلم يبرزوا إلا بعـد سنة ١٩٣٠ . وهذا واحد منهم ، مارسيل غريول ، كان قبل هذا التاريخ قد عمل كثيراً في الحبشة ، كما أن بول ريفيه كان قد أثار كثيراً من البعثات لمهمة البحث في هذا العلم . ولكن بعثة دا كار ـ جيبوتي لم تبدأ تجوالها في افريقيا ، والسنغـال ، والحبشة ، إلا في سنة ١٩٣١ . ولقد كانت هذه البعثة للبحث الجماعي ، فاتحة عهد جديد هو عهد الاختصاص العـرقي ، والعلمي ، والمهني .

خاتمــة | نحو سوسيولوجيا العرقية

كما أشرنا في ما تقدم ، نوقف مراجعتنا التاريخية عند حد السنة ١٩٣٠ ، لأسباب تتعلق بالملاءمة ، والتوقيت ، والمشاركة في مؤلفات ذات نوعية واحدة . وحدود البلاد ليست ، في شيء آخر ، ذات معنى كما هي في هذه المراجعة التاريخية ؛ أما من جهة الزمن فلا ضير على المراجعة إن تقدم تاريخهـا خمس سنوات أو تأخر عشراً : فتاريخ تركيز الحدث العلمي العرقي المعاصر ، محض اصطلاحي .

ولكي يتضح أمر الحد التاريخي ببعض التعيين الزمني نقول : ان علم العرقية المعاصر ، يتميز بولادة الاختصاص به ، مهنـة تزاول ، وبالتنظيم المنهجي في الأبحاث على الأرض المعنية بالدرس ، وهذا لا يرقى زمناً الى أبعد من أعقاب الحرب العالمية الأولى ؛

ولكن هذه النزعات التي اختلفت لم تظهر واضحة ، في ما إئتلف وما اختلف ، إلا في مجرى النصف الثاني من القرن التاسع عشر : إذ تخالفت الأبحاث ، فأخذ علماء العرقية في تحاليلهم المقارنة وأحاطوا نفوسهم بالضمانات ، والنظريات ، ومضت المدارس في التمهيد والإعداد .

ولقد حاولنا ، في الصفحات السابقة ، أن نعطي ، بكل بساطة ، الحد الادنى من المعلومات التاريخية في موضوع قلّما تناوله البحث في محاولة من وضع عناصره الأكثر تعبيراً ، في « موضوع معين » . ولكن ما يجب الشروع في القيام به هو سوسيولوجيا عرقية . ومن جهة أخرى ، نرى أن الحقول العلمية الأكثر غنى من هذا العلم ، من حيث اقترابه من علم آخر قليلة : ففي الظرف الذي يواجه فيه الانسان« مستقبله »، يصل سعيه فيه الى تحديد ذاته ومعرفة نفسه ؛ فاكتشاف الآخرين هو اكتشاف الذات . وهكذا توصل الانسان الى صيغة قدر فيها « الانسانية » تقديراً محسوساً انطلاقاً من درسه « انسانيات » بعيدة . والحركة كانت بطيئة وصعبة ؛ ولكن مع الزمن الطويل انتصر الميل الى تقويم الجماعة أو البلد تقويماً عرقياً . ولقد أشرنا الى أن أسماء شعوب عديدة تعني بكل بساطة « الناس »، أو أو بتعبير ضمني الناس « بالصفة الممتازة » ، إذ لا وجود لشيء خارج الانسان الممتاز . وهذا هو بالضبط الوضع الذي إعتمدته

الحضارات القديمة الكلاسيكية ، والثقافات الاوروبية ، زمناً طويلاً . فالبرابرة لفظهم المجتمع القديم ، للغتهم العجماوية ، أي التي كأنها أصوات حيوان ؛ والمتوحشون ، أشرار تائهون يأوون الى الغابات ، ظلوا غير قابلي التحول الى الانسانية المنظمة ، في الحقول أو في المدن ؛ فأبناء « الطبيعة » كانوا على نقيض « الثقافة » ، وعند آخر السلم النشوئي كان « بدائيون » يعيشون في منفى من الزمن والمسافة ، وكأنهم أخطاء ضد منطق التاريخ وتسلسله تعيش لتوضع في المتاحف .

يُفهم أن العرقية دراسة الانسان المصحح من الخطأ ، والذي قضى زمناً طويلاً ليثبت ذاته . فكيف توصل الى ذلك ؟

نظرياً ، يمكن أن نمايز ، من حيث الزمان ، وقتين قويين في تاريخ الفكر العرقي ؛ الأول منهما كائن في الآونة التي يتعرف فيها الانسان انساناً آخر بمقدار ما هو انسان ، وبمقدار ما هو كائن مختلف ، ولكنه يسهم في الانسانية ؛ وبعد هذا التثبت من اختلاف الآخر ، يأتي الوقت الثاني ليكون الظرف الذي عُرف فيه الآخر انه مثيل الاول . ولكن هذا التخطيط تغايره الوقائع ، حتى نوشك أن نقلب هذه المقترحات : لأنه اذا كانت معرفة العالم الاسود قد توفرت عملياً بموجب مخطط ، فان الأمر ليبدو مختلفاً بالنسبة الى الهنود الاميركيين ، والآسيويين ،

والأوقيانيين . ففي القرن السابع عشر ، مثلاً ، كان الانتماء الى المسيحية ، الذي يكتسبه الانسان بالعمادة ، وحده ، هو العامل المعول عليه في التعارف الانساني ؛ فالهندي المعمّد كان معتبراً أنه أصبح انساناً ، في أوسع قبول لكلمة انسان ، حتى لو كانت الحقيقة تكذّب المبدأ ، فهذا المعمّد لم تتوفر له انسانيته بسرعة عمادته ؛ والانسان « الجديد » إذاً ، مشبّه ، وهذه الافكار كانت تتفق ورسائل الخارجين على التقاليد والعادات ، الذين كانوا يرون في « الطبيعيات » ملجأ كل فضيلة ، كما يرون الأخذ بنظريات الفلاسفة ، الذين كانوا يعلنون وحدة النوع البشري . ولم يدرك هؤلاء أنهم كانوا على اختلاف ، إلا عندما تطور تراقي البشر وعُرفت هذه الثقافات ،فتبين لهم أن اختلافهم قائم في قدرتهم شرعياً على استرجاع حقهم النوعي .

هل يجب الاعتقاد بأن الفكرة العرقية تولد ، حقاً ، ساعة نبتدىء في استعمال كلمة « مدنية » في صيغة الجمع لا المفرد ؟ يعني ساعة نعتمد الاعتراف بصحة كل نظام ذي قيمة ، ونقر بوجود « ثقافات » لا ثقافة ؟ إن هذا النشوء المتنوع في معاني « كلمته » ، تحدد في أوائل القرن التاسع عشر ؛ وقد أشرنا الى أن « مدرسة » الايديولوجيين ، أي علماء الفكر ، أصبح لها جديد من الافكار في هذه الأسئلة . ولكن تاريخ الكلمات لا يعني بالضبط إعادة تقطيع تاريخ الأفكار . وفولتير وروسو والفلاسفة ، أقروا ،

بصورة جدية ، بوجود حضارات لا حضارة واحدة ، كما كان قد سبقهم آخرون الى هذا الاقرار .

والعرقية كعلم ، لم تطلع على دنيا الفكر من يوم أن تخلص المحافظ من كل تفكير مسبق ، لكن، ابتداء من مواجهته مجتمعاً مدروساً دراسة ، لم يُكتف لها باعتماد المراجع التي كتبها الغير ، بل دراسة شخصية ؛ وقد يكون الجهد الشخصي مبذولاً على نية المقارنة ، أو على مستوى السخرية أو النقد الخلقي ، أو على مستوى فلسفة التاريخ ؛ وفي مثل هذه الحالات يعلو قدر الجهد الشخصي بمقدار ما يكون المركّب الثقافي شيّقاً ، وبمقدار ما تكون « الأنا » الدارسة لا الآخرون . ولكن الوقائع تبدو ، هناك ، مختلطة ؛ ويمكننا أن نكشف عند كثير من علماء العرقية الحديثين ، من المدرسة المعروفة بـ « ثقافة وشخصية انسانية » نصاً يعود الى زمن سابق ، يكون بمثابة بطانة ، تؤلف مرجعاً ملتبس الصورة البادية عن مجتمع « المحافظ » ؛ فيجب أن نجرد الشخصيات من كل ما يضعهم في موقف المتهم ؛ لأنه ، منذ العصور القديمة ، يُفترض في مؤرخ محترم مثل « بوليب »[1] أن يكون قد أبدى ملاحظاته دون أن يأخذ

---

١ - مؤرخ يوناني (٢٠٠ - ١٢٥) ق.م. عاش ١٦ سنة في رومة ، فكان فيها صديقاً لسيبيون أميليان . وهو اقدم من حلل قضايا التاريخ بصورة منطقية ، وبحث في سببية تفسير الوقائع . (المترجم) .

بالفكرة الخلفية القاضية بربط الملاحظات بثقافته الخاصة ؛ نقول هذا عن بوليب حتى لا نقول شيئاً عن كتاب بانزانياس[1] ، لأنه بوصفه أول من درس بلاده اليونان ، يخرج عن صعيد هذه المؤاخذات . وبعد هذا يبقى أن نقول : ان علم العرقيـة لم تكن ولادته حقاً إلا بعد أن انتقل مركز الاشتغال بالبحث ، فأصبح المجتمع العرقي يُدرس لنفسه موضوعياً .

في الواقع ، ان البحث العرقي يسترفد مجريين من الفكر : أولاً ، مجرى طرح العرقية سؤالاً ، حاول الإجابة عنه فلاسفة القرن الثامن عشر ، ومناقشة فلسفة التاريخ . ثانياً ، مجرى ما دار حول ظهور « التاريخ الطبيعي» على أنه علم قائم بذاته ، وقد استلم توجيه هذين المجريين علماء الارتقاء التطوري . ومما تجدر الاشارة اليه أن هذا المجرى المزدوج ، لم يكن مكتمل السلامة بل كانت تعتوره مآخذ منهجية ، منها أن الفلاسفة من جهة ، صرفوا همهم الى المجتمعات الخارجية ، لا عناية بها ، إنما ليستطيعوا ، بصورة أفضل ، أن ينتقدوا مجتمعهم الخاص ؛ ومن جهة أخرى ، كان الناظرون نظرات بحث ودرس في المجتمعات البدائية ، يأخذون ، ولو بصورة غير مقصودة ، بمبدإ أولي غير مناقش ، الشواهد على انسانية موغلة في القِدم . وهذا مـا

١ ـ جغرافي ومؤرخ يوناني من القرن الثاني للميلاد . صاحب الكتاب المشهور « وصف اليونان» . (المترجم) .

يؤلف متحجرات مجتمعية ، ويفسح المجال لإنشاء نوع معاصر من علم الاحساس بدلائل الآثار . ولكن هذه الرؤى الزائغة عن الصواب بتأثير مفاهيم مسبقة ، أوشكت ان تعود الى الصواب.

كتب كاردينير وبريبل يقولان : « المعترَف به عامة أن علم النشوء والارتقاء هو في أساس علم مفارقات البنيات المجتمعية ؛ ونحن نقول ، بدلاً من النشوء والارتقاء ، اليوم ، الارتقاء التطوري. والمبادىء الأساسية لهذه الاستبدال خلص اليها فلاسفة فرنسيون ، من أمثال : مونتسكيو ، وروسو ، وتورغو ، وكوندورسه ، ثم كونت إذ أقروا ، دون أن يضعوا صيغاً من الكلام ، المفاهيم الكبرى للدينامية المجتمعية الفاعلة في مختلف الجماعات ، كما أقروا نتائجها الثقافية . وجاء ، بعد حين ، مؤسسو ما قبل التاريخ ، وبينهم بوشيه دي بيرت ، فوجدوا ، بواسطة درس القشرة الارضية ، القرائن التي تثبت وجود هذه الحركة الارتقائية الآخذة بالمجتمعات البشرية . يبقى أنه كان يجب أن تبنى نظرية علم الأحياء ؛ وهذا ما حدث ، بعد حين ، على أثر توقعات بوفون ، وفي أعقاب مؤلفات لامارك المجددة والتي لم تنل ما نستحقه من الشهرة . ولكن كان على هذه الفكر الجريئة أن تنتظر داروين ليحملها الى العالم كله ، على جناحَي شهرة تستحقها ؛ فاذا بهذا الفكر الداروين يترك طابعه على الكلاسيكيين الأول من علماء العرقية .

وفي هذه المرحلة نفسها العاصفة بثورة فلسفية، كانت نظامية جديدة مركّبة توطّد ركائزها، انها نظامية التاريخ الطبيعي. وفي هذا النحو من المعنى كتب ج. غوسدورف، في القرن الثامن عشر، ما نصه: «ان التاريخ الطبيعي يبني نفسه نهائياً، في نظامية كاملة خاصة، وأن يسترجع حقه، في الانسان نفسه، كموضوع من مواضيعه. فهناك ثورة حقيقية تقدر العلوم بالنسبة الى عقل الانسان. فالدرس الموضوعي في الطبيعة لم يصبح ممكناً الا ابتداء من اليوم الذي أصبح فيه الوسط الطبيعي خاضعاً للموضوعية؛ وابتداء من الساعة التي صارت فيها الطبيعة غير مقدسة، ومحتسبة كعنصر معزول مشاع نتناوله حين نشاء، وبحكم التسلسل المنطقي، توصل الباحث الى أن جعل الانسان وثقافته كعنصر من الطبيعة، اذن، يُستطاع تناوله مثلها في البحث العلمي.

هذا التأثير الوصفي، الذي بقي زمناً طويلاً منضوياً تحت تسمية تاريخ طبيعي، لا يجوز ان يكون شيئاً خلفياً؛ فقد رأينا ان العرقية اعتمدته عملياً، في بادىء أمرها، عديلاً لتاريخ الانسان الطبيعي، وهاكم ما رواه ليفي ـ شتروس عن «مؤسس علوم الانسان» روسو، اذ قال، منوهاً بما عليه من دين في تأسيس هذه العلوم: «معلمي وممهد طريقي، لينته

الكبير[1] » . وقد جاءت هذه العبارة لروسو ، في « مراسلة عامة لروسو » (ص ٣٧٣) .

وهذان العالمان كاردينر وبريبل يكتبان ، بعد أن جددا التقنيات الأصيلة الطبيعية ، والأوصاف النظرية المتعلقة بأنتروبولوجيا النشوء والارتقاء ؛ يكتبان على أثر هذه البداءات المتميزة بالإعادة الى الثقافة مكانتها في الطبيعة ، وبالرغبة في ألاّ تترك هذه الثقافة لأن تتخلص من أسسها الطبيعية . وبناء على هذا التميز،نجد أن أميل دوركهيم وفرانز بواس قد أسهما في الأمر : الأول بما حمل الى الأنتروبولوجيا من أفكار وطرق منتزعة من علم كان جديداً ، يومئذ ، هو علم السوسيولوجيا ؛ والثاني بما حمل من وضوح التفكير ومن نظامية العلوم الطبيعية .

وهناك تأثيرات أخرى ، من المفروض أن يُشار اليها : أخصها تأثير مارك وفرويد . فحصيلة مارك في معظمها كانت في إلقاء الضوء على التحديد الاقتصادي للأعمال المجتمعية ، ثم جاء علماء العرقية فكشفوا ، بالتالي ، عن التحديد المجتمعي للأعمال الاقتصادية ؛ ويبدو لنا أن حصيلة فرويد التي تعرّف الميثولوجيين ، كما عرفهم ر. بينيديكت وكاردينر ولينتون ، ستكون ، في المستقبل ، اكثر أهمية في تفسير النماذج اللاواعية،

---

١ ـ عالم نباتي سويسري كبير ، اعتمد روسو طريقته في البحث والتنظيم . (المترجم)

الذين تعرّفهم الينا أطر المجتمع .

أما علماء العرقية الذين ألزموا نفوسهم بتحليل الثقافات ، والذين كثيراً ما يحاربون الوقت الذي يخرّب في أعمالهم ، ويفسد عليهم معرفة الثقافات ، فانهم لم يجدوا متسعاً من الجهد يستطيعون به أن يهذّبوا الدروس التاريخية التي تفرض نفسها عليهم . ومن المستحسن ، اليوم ، أن نصنع تاريخ الفكر العرقي مفصلاً ، ثم أن نحاول فهم السوسيولوجيا وربطها به . ذلك لأن صنع السوسيولوجيا العرقية يعني محاولة استخلاص العلاقات المتبادلة ظرفياً ، والممكّنة من التوحيد بين تطور معرفة الانسان من جهة ، والمعتقدات الدينية ، والوضع السياسي ، والوسط التقني الاقتصادي ، ومبادىء الأخلاق ، وتنظيم القيم ، من جهة أخرى . وفي التاريخ منطق داخلي لتقدم الانسان في اقترابه من الانسان . ومن أجل هذا ، عُرضت سلسلة من الطرق التوضيحية تباعاً ، ابتداء من نظرية « المتوحش الطيب » الى نظرية « البدائي » المعيد بناء الطفولة البشرية ، وكل واحدة من تلك النظريات يجب أن نجد لها مكانها. ونحن نعلم الأهمية التي حملتها الأمثولة التوراتية والمحرمات الدينة ، في ما يتعلق بابتداءات ما قبل التاريخ ، والانتروبولوجيا الفيزيائية ، والتشريحات الجسدية التي جرت على جثث مسروقة . ولكن تأثير النطاق الاقتصادي يمكن أن

يكون أكثر دقة ومرونة : لأنه لا شك ، مع ذلك ، أن النظريات التي تناولت أصل السود – والتي ما تزال ذات حيوية في بعض مناطق الولايات المتحدة – واللجوء الى الضمانة المدّعاة للكتاب المقدس ، كل هذه لن تصبح مفهومة إذا لم تؤخذ، بعين الاعتبار ، الأهمية الاقتصادية التي تقتضيها اليد العاملة المستخدَمة. وعلى صعيد آخر ، سنذكر بالعلاقة الكائنة بين طبيعة السلطة واتساع البحث العرقي : فحكومات النموذج السلطوي لا تتعود بصورة حسنة ، الحريات العرقية ، لذلك تحولها ، عادة ، نحو مركزات وصفية أكثر صفاء تتناول ما قبل التاريخ ، والتكنولوجيا ، والفولكلور .

أما تفسير الفكرة العرقية تفسيراً سوسيولوجياً ، فيبقى موضع تحقيق مستقبل . ونتائج البحث في هذا التفسير تفيد النظرية العرقية نفسها ، كما تفيد غطيتها ، وتساعد على ترقيتها . وهذا لأجل الأسباب ذاتها التي تضطر عالم التحليل النفساني لأن يكون واعياً بأن العرقية يجب أن تفسر ذاتها .

وهكذا تفهم العرقية ، فهماً أفضل ، سيرها الخاص، الذي يقوم في اعتبار الثقافة كنظام مجموعات مبادىء يجب أن تُحل رموزها ؛ لأن الانسان يحيا في شبكة مركّبات رمزية ، هذّبها لا شعورياً ، وهي تحتوي رسالات لم تؤخذ بعين الاعتبار. فكل ثقافة تحمل شهادة وتسهم بدورها في اصطلاحات عالمية

المفاهيم. والعرقية ، في محاولتها بلوغ هذا المدى ، تعطي أفضل أمثولة في قابلية تفهم المضامين العرقية والثقافيـة . وتاريـخ العرقية يكشف عن كيفية محو الأحكام والمفاهيم المسبقة تدريجياً وببطء ، كلما توفر الأقتناع بأن ما حسبناه « غريباً » هو أقل غرابة مما توهمنا . وهذا التاريخ هو تقارب طـويل المـدى في طريق الانسان نحو الانسان . وفي مسافة هـــذه الطريق ، عرف الانسان أن معرفة الانسان الآخر ، تفرض عليه معرفته نفسه .

فهرس

منشورات عويدات ٢٦٤/١٠/١٩٧٤

زدني علماً

الوظيفة العامة / لوران بلان . . . .
الكلام / جورج غسدورف . . . .
الأنظمة السياسية والادارية في بريطانيا / كلود غيّو
الثقافة الفردية وثقافة الجمهور / لويس دوللو . . . .
توظيف الأموال / غايل فاين . . . .
الأدب الألماني / جوزف فرنسوا انجيلوز . . . . . .
المحاسبة التحليلية / هنري كولمان . . . .
الأنظمة السياسية والادارية في فرنسا / بيار باكتيت
الأمومة والبيولوجيا / جان روستان . . . .
تاريخ الأساطير / جان بيار بايار . . . .
قانون الفضاء / شارل شومون . . . .
تلوث المياه / رنيه كولاس . . . .
النقد الأدبي / كارلوني وفيللو . . . .
الأنظمة السياسية والادارية في الاتحاد السوفياتي /
ميشال لوساج . . . .
الأنظمة السياسية والادارية في المانيا / بيار اندريه بوا
النسبية / بول كوديرك . . . .
السوريالية / ايف دوبليس . . . .
حلول فلسفية / عبد الجبار الوائلي . . . .
التلفزيون الملون / روبير غيليان . . . .
مدخل إلى الاقتصاد / روجيه دوهيم . . . .
الأخلاق والحياة الاقتصادية / فرنسوا سلييه . . . .

Jean POIRIER

Directeur du Département des Sciences humaines
à la Faculté des Lettres
et Sciences humaines de Madagascar

HISTOIRE DE L'ETHNOLOGIE

Traduction Arabe
de
Nassim NASR

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

انّ كلمة « عرقيّة »، في هذا الكتاب، استعادت معناها العلميّ الصحيح ؛ وردت فيه أوسع واعمق من لغة التخاطب الشفوي، والتعبير السطحي عن العصبيّات الطاغية على الأفراد والجماعات، في بعض الاحيان، اعتداداً بالقربى : قبليّاً لا قومياً .

والقارىء يمضي مع المؤلّف، وقد استقطف من هنا، واستقطب من هناك او هنالك، متجاوزاً معابير الزمان والمكان، فكأن الموضوع تعدّد، وترامت أبعاده، فاذا هو خريطة، او معرض صغير لعالم كبير، تتدافع إلى جوانبه اصناف الناس، منذ كانت البشريّة .

هذا السجل نواته العرقية، انفتحت لتتناول في مضامينها كينونة الانسان معنىً وكيانه مادّةً : ولتضع المؤثّرات الطبيعيّة والبشريّة، كلاً في زاويته ومستواه من الابحاث المؤرّخة .

فالكتاب اسمه « تاريخ العرقيّة » لأنّه تاريخ في ظاهر العرض الموضوعي ورواية الحوادث، ووصف الأعمال، وهو علم انسانيّ في محتواه الفكريّ الفلسفيّ الجامع، وفي أخذ الانسان طاقةً وتطوّراً ورقياً، أكثر منه عظماً ولحماً ودماً

وفي شعاب هذا الكتاب المحوريّة، ومنعطفات التار يستعرض القارىء شريطاً مصوّراً تنبض الحياة في صو الانسانية تحدّث عن نفسها بنفسها ؛ فالعرقيّة، تعني إلى جانب التأصيل : لغةً وعلماً .